الجزء الثانى

الثورة

« إنى أستصرخ مغفرتك يا سيدتى
لقد أخذت بجريرة هذه الماكرة الفينيسية
التى تزوجها عطيل » [1]

(من رواية عطيل لشكسبير)

---

(١) لقد منعت السلطات فى مدينة الكاب دخول رواية عطيل فى أفريقيا الجنوبية لأنها تتعارض مع الصالح العام فى هذه البلاد .

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الخامس

مملكة السياسة

« ابحثوا أولاً عن مملكة السياسة » هذه الكلمات التى على نسق الكتاب المقدس قالها كوامى نيكروما زعيم حزب المؤتمر الشعبى الذى ناضل حتى انتهى إلى استقلال ساحل الذهب تحت اسم غانا . كان هذا الاصطلاح تعبيراً عن هدف معين .

أما بالنسبة للوسيلة فكان لزاماً أن تكون فى أغلب الحالات هى إظهار التشدد أكثر فأكثر كلما توالت الإصلاحات التى تقرها الدولة الأوروبية المستعمرة تحت ضغط الأحداث التى أخذت تسير بسرعة متزايدة . ويمثل هذه التطلعات أصبحت حركة الإصلاح أحد الأهداف التى لها الأفضلية لدى الحركة القومية الأفريقية .

ولكى يحذر كوامى نيكروما المجاهدين فى حزب المؤتمر الشعبى من خطر حركة الإصلاح هذه فإنه كان يوصيهم إبان الإصلاح الدستورى الذى صدر فى عام ١٩٥١ قائلاً : لا يجب أن يقوم إخاء بين أعضاء حزبنا أصحاب المقاعد فى المجلس التنفيذى وبين الموظفين البريطانيين . ذلك لأن مالم يستطع الاستعماريون تنفيذه عن طريق الإصلاح العنيف فإنهم يأملون فى ضمان نجاحه عن طريق حفلات الكوكتيل .

ومن المعتقد والمفيد أن نتبين فى هذا المقام أنه قد سار جنباً إلى جنب (بالتوازى) مع التطور الذى أعقب الإمبراطورية الفرنسية ، سار دستور عام ١٩٤٦ ، والاتحاد الفرنسى والقانون الأساسى لعام ١٩٤٦ والذى كان يمنح أراضى ما وراء البحار الفرنسية نوعاً من الاستقلال الذاتى وكذا دستور سنة ١٩٥٨ الذى أنشأ رابطة الشعوب الفرنسية وقانون ٤ يونيو سنة ١٩٦٠ الذى أسس به ما يسمى « رابطة الشعوب المجددة » والتى اندثرت الآن . ولقد مرت مستعمرتا ساحل الذهب ونيجيريا قبل حصولها على الاستقلال بعدة مراحل دستورية تتابعت عليها فى سرعة تقل عما حدث فى

المستعمرات الفرنسية ، وكانت تلك المراحل المذكورة التى مرت بها نيجيريا تحمل كل مرحلة منها اسم حاكم معين أو وزير معين ، مثل دستور « كليفورد » عام ١٩٢٢ ودستور « ريتشرد عام ١٩٤٦ ودستور « ماكفرسون » سنة ١٩٥١ و « ليتلتن » عام ١٩٥٤ ، وقد سبق هذا منح الاستقلال الذاتى لثلاث مناطق من الاتحاد الفيدرالى الذى انتهى أخيراً إلى الاستقلال عام ١٩٦٠ [١] . (ويقصد نيجيريا) .

ففى ساحل الذهب أدخل أول إصلاح تشريعى دستورى فيه عام ١٩٢٥ ثم حدث إصلاح آخر عام ١٩٤٢ ثم صدر دستور « بيرتز » فى عام ١٩٤٦ ثم فى عام ١٩٥١ أعيد تكوين المجلس التنفيذى حيث لا يزال يحتل فيه ثلاثة من كبار الموظفين البريطانيين مقاعدهم كأعضاء مسئولين ومكلفين ، وأخيراً دستور سنة ١٩٥٤ الذى أدخل النظام البرلمانى ولكنه يترك الشئون الخارجية والدفاع عن الدولة من اختصاص الحاكم العام . وسيعلن استقلال غانا عام ١٩٥٧ وسرعان ما سيختفى كل أثر لإشراف التاج البريطانى عند إعلان الجمهورية .

لم تندفع عجلة التطور فى سرعة فى الأربضى الأفريقية الأخرى التى تتكلم اللغة الإنجليزية إلا أخيراً جدًّا ، مع أنها سارت على نمط معين جعل من قصور فيكتوريا فى شارع لانكستر بلندن حيث تحتل المؤتمرات مكاناً يستقبل وفود هذه المناطق التى لا تنتهى مطلقاً . كما أن أعمال هذه الاجتماعات التى لا تنتهى سواء أكانت تجمع وفود كينيا أو جزيرة موريس أو نياسالاند قد أصبح لها طقوسها الخاصة بها (وهى علاقة الأقلية بالأكثرية) داخل لجنة التحقيق الملكية . حتى أنه قد أصبح خروج مندوبى الأحزاب المناهضة لسير الأعمال أو احتجاج المجموعات الصغيرة التى لم يعترف لها بحق الاشتراك فى هذه المؤتمرات ، أصبحت كل هذه الأمور أحداثاً روتينية بالنسبة لإدارة العلاقات السياسية بوزارة المستعمرات أو لإدارة العلاقات الخارجية للكومنولث .

أما بالنسبة لأنواع النقد التى كان لا بد لها من أن تصاحب الإصلاحات فى المناطق الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية أو الناطقة باللغة الإنجليزية وكل ما وجه من اتهامات للاستعمار ، كل ذلك استخدم كإطار حول هذا الموضع الجديد ، لأن هذا الوضع الجديد لم يغير من جوهر المشكلة وهى الاستعمار ، فقد أعلن غير الراضين عن هذا الإصلاح اتهاماتهم له وكانت هذه الاتهامات صحيحة . حتى حين تم الاستقلال كانت لا تزال هناك حاجة ملحة لتصفية ذيول الاستعمار ، منها

---

(١) ألف القانونى النيجيرى « كالو أبزيرا » كتاب عن التطور الدستورى فى نيجيريا تحت عنوان « التقدم الدستورى فى نيجيريا » .

على وجه الخصوص القواعد العسكرية التابعة للدول المستعمرة السابقة . وكان هناك احتراس متزايد من أخطار الاستعمار بالجديد الذى يظهر فى التسلط القائم فى المعاهدات الاقتصادية والمالية (معاهدات المعونة) .

وسيقول الأوروبى فى عاصمة بلاده إن هذا هو السير الطبيعى للأمور ، ويرد الأفريقى على هذا بقوله إن هذا الاحتراس ضرورى من جانبنا . ففى عام ١٩٥٧ حيث ظهر كتاب « نامدى أزيكويه » الذى أدان فيه الاستعمار . . ففى مقدمة الكتاب يقول المؤلف : فى الصراع القائم بين من يملكون (القوى التى أخذت المستعمرات فى أفريقيا) ومن لا يملكون (القوى الأوروبية التى لم تغنم مستعمرات فى أفريقيا وأبعدت عنها) كان الأفريقى فى نظرهم أنه خلق ليخدم الإمبريالية ولا وزن لشخصه عندهم ، وأن المواد الخام التى يجلبها الأفريقى للأوروبى هى أهم كثيراً من الأفريقى نفسه ، بل لها قيمة أكثر منه . وليس لليد العاملة إلا تسيير آلة الإمبريالية وإعداد الجنود من الناحية العسكرية التى تدافع عن الإمبريالية . » ويتابع الكاتب حديثه قائلاً : ولكن الأفريقيين غير مستعدين الآن لقبول هذه الأفكار العتيقة من الإمبريالية . فإن أفريقى القرن العشرين وأفريقيا الناهضة سيكونون عنصراً لابد أن يعمل حسابه » ذلك هو الموضوع » موضوع الكتاب « فى إبراز أهمية الأفريقى » .

كما أن المبادئ التى نادى بها « كوامى نيكروما » لم تكن أقل مرتبة من هذه الآراء السالفة . فحين رد فى كتابه « نحو التحرر من الاستعمار » على ما قاله وزير المستعمرات الإنجليزى : « السير أوليفر ستانلى » الذى قال فى خطابه إن مجرد وجود الإنجليز يمنع التفكك المخيف الذى يحدث فى المستعمرات . فيصرخ فيه نيكروما قائلاً فى كتابه السالف الذكر : إن هذا الوجود البريطانى الذى يدعيه الوزير ويصفه بأنه للخير هو الذى حصد سنة ١٩٢٩ بالمدافع الرشاشة نساء نيجيريا المسكينات العزلاوات من السلاح لا لشىء إلا لأنهن احتججن على الضرائب الباهظة . كما يواصل نيكروما صيحته فى وجه الإنجليز قائلاً : إنه حقًّا الوجود البريطانى هو الذى أرغم العمال الأفريقيين على أن تخور قواهم فى المناجم والمزارع الواسعة نظير أجر حقير مقداره ٩ بنسات لقاء عشر ساعات من العمل المضنى مع قطعة خبز تافهة – إنه الوجود البريطانى الذى اضطهد وعذب وسجن ونفى زعماء النقابات لا لذنب إلا أنهم نادوا بتنظيم العمل والعمال فى المستعمرات . إن الوجود البريطانى هو الذى جلب الحرب والظلم والفقر والمرض وأبقى على الأمية والجهل بين أفراد الشعب المستعمر .

إنه الوجود البريطانى الذى يستنزف دم هذه الشعوب ليغذى «الأسد البريطانى» باللحم الأحمر.

هذه هى النتائج الناجمة عن الوجود البريطانى فى المستعمرات.

و «سيزار» لم يكن أقل شرحاً فى خطابه المشهور ضد الاستعمار حيث يقول: استعمار وحضارة؟!! إن اللعنة الكبرى فى هذا المجال هى أن ينخدع السذج والبسطاء وأصحاب الضمائر الظاهرة بنفاق جماعى قدير على صياغة وعرض المشاكل المسيئة فى قالب يجعلها شرعية بل حلالاً. ويسبغون عليها نوعاً من الحلول يخفى جوهرها الكريه، فالمهم إذاً فى هذه الحالة أن نتبين الطريق فى وضوح وأن ننظر إلى الأشياء فى وضوح وأن نفكر فى أناة ووضوح ونصغى فى حذر متزايد بأن نجيب فى بساطة على هذا السؤال البسيط البرىء: ما هو إذاً الاستعمار وما مبدؤه؟ فلنتفق على تعريفه بأنه ليس عملية تبشير وليس مشروعاً خيريًّا وليس هو دفعاً بالجهل إلى الوراء ولا دفعاً للمرض ولا للطغيان وليس هو نشراً لفكرة وجود الله ولا لنشر القانون، وإنما يجب أن نقول فى غير زعزعة ولا تردد بأن كل هذا مؤداه لنتائج الاستعمار التى هى صراع بين المغامر الأوروبى والقرصان والبقال (تاجر الجملة) وصاحب السفينة والباحث عن الذهب وأصحاب الشهوات وأصحاب القوة، ويكمن وراء كل ذلك من موبيقات شبح الحضارة التى كانت فى وقت ما تدعى أنها مضطرة أن تمتد نظمها الاقتصادية على الصعيد العالمى.

ففى عام ١٩٥٨ كان لزاماً على المرء أن يختار بين «نعم» و«لا» فى الاستفتاء الذى اقترحه «دى جول» فى مستعمرات ما وراء البحار. يستند «سيكوتورى» فى حديثه إلى نص «سيزار» الذى أصبح من النصوص المدرسية التى يتلقاها المثقفون الأفريقيون، ولكنه يضيف إليه هذا التعليق قائلاً: إن بيان سيزار واضح ودقيق ولا يمكن تجريحه ولكنه يدفعنا إلى أن نضيف سؤالاً آخر هو: هل إزالة الاستعمار عمل ممكن حدوثه؟؟ من المؤكد أن استعمال هذه الكلمة «إزالة الاستعمار» تتناقلها الأفواه بين المتطرفين الأوروبيين رغم أنه تخفى وراءها خدعة خطيرة[1].

تمثال هتلر:

من المسلم به أن تحرير الهند واندحار «دين بن فو» ومؤتمر باندونج واستقلال مراكش وتونس، والنجاح الأدبى فى مصر بالنسبة لموضوع قناة السويس وكذا انتصار ماوتسى تونج، كل هذه

(١) ورد ذلك فى الجزء الأول من كتاب «العمل السياسى» الذى قام به الحزب الديمقراطى فى غينيا فى سبيل تحرر أفريقيا.

العوامل كانت مصدر إلهام الزعماء (زعماء أفريقيا الوطنيين) ، لذلك فقد أفاد «ندبانمنجى سيقوليه» الروديسى من كتاب فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر فاستشهد ببعض فصوله فى كتابه بعنوان فى «القومية الأفريقية» كما أن «نيكروما» جعل من نفسه تلميذاً من تلاميذ غاندى ، وسنغور . . فقد تأثر الوزير التونسى أحمد بن صالح فى كتابه «طريق أفريقيا نحو الاشتراكية» ويحتل ماوتسى تونج مكاناً إلى جانب «لينين» عند الكتاب الأفريقيين الماركسيين . ولكن من الواضح أيضاً أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة انطلاق فى أفريقيا السوداء وكان لها أثرها الواضح فى إزالة الاستعمار . فإن مطالبة المستعمرات بالإسهام فى الحرب بالرجال كانت الدعوة لها تحت اسم محاربة التفرقة العنصرية التى ينادى بها النازيون ، كل هذا دفع فكرة إزالة الاستعمار دفعاً قويًّا . وكان المثقفون الأفريقيون يؤمنون بذلك ويعوه جيداً ، والذى لاشك فيه أن «ألبير بتفوجير» رئيس التحرير السابق فى مجلة «الطالب الأفريقى الأسود» والذى اتهم عام ١٩٥٧ بالإضرار بأمن الدولة والذى أصبح بعد ذلك سكرتيراً عامًّا لاتحاد أفريقيا وملاجاشى . هذا الرجل قد عبر عن تلك الأفكار بأقوى تعبير ، حيث كتب فى صحيفة «أفريقيا الثائرة» ما يأتى : إن كثيراً من الأفريقيين يتحدثون علناً فيما بينهم من أحاديث خاصة أنه يجب إقامة تمثال لذكرى شخصية لعنها التاريخ هو «هتلر» والأمر فى مظهره يبدو إرضاء بزوة قد تبدو غير مألوفة بل ومؤلمة للنفس ، ولكن الذى يجهله الأوروبيون جهلاً تامًّا أن هذه الحرب العالمية الثانية قد أيقظت الأفريقيين وعظم وعيهم لدرجة كبيرة بل ومفزعة ، وفتحت أمامهم مجالات فسيحة فى العالم الخارجى وجعلتهم أرهف إحساساً تجاه أى ظلم يقع عليهم . فلم يعد يتجاهل الناس أو يتنامى هذا المثل الصادق حين وجه نائب أسود إلى الجمعية الوطنية الفرنسية تأنيباً قاسياً فقال : إننا حين ساعدناكم لتتخلصوا من وطأة النعال الهتلرية قد عضضنا رغيف الحرية عرفنا طعم هذه الحرية ، ويجب أن تفهموا جيداً أنه لا يمكنكم أن ترغمونا على نسيان طعم هذا الخبز (الحرية).

وقد تردد نفس هذا النغم (نغم الحرية) بقلم «مبتهول» إذ يقول فى كتابه : «القومية الأفريقية» «بعد الحرب العالمية الثانية قد وضعت مخططات للحد من السيطرة الإنجليزية والفرنسية فى أفريقية . فقد قلتم إنه لاحق للألوان فى السيطرة على العالم ، وإذاً فليس للإنجليز أى حق للسيطرة على الأفريقيين» . كما أنه من ناحية أخرى ما قام به المحاربون القدماء من إثارة الأحداث التى تمت فى عام ١٩٤٨ فى أكرا وهى أحداث كان لها أثر كبير ومدى واسع ، ولذا نعتبر هذا التاريخ من أهم التواريخ فى حركة استقلال ساحل الذهب .

فإن استخدام جيوش المستعمرات فى الحروب الأوروبية وخاصة فى فرق حمل المدافع الرشاشة وكانوا من السنغال الذين عملوا فى حرب الجزائر قد ضمت فى صفوفها أكثر من زعيم سياسى من أفريقيا .

فقد أفرد الوزير السنغالى السابق «عبدلاى لى» كتيباً خاصًا بعنوان «جنود المرتزقة السود» وكان أسلوبه فى هذا الكتيب قاسياً . وقد هاجم فيه المؤلف خاصة الجنرال «ماجن» لأن هذا الرجل السياسى يعتبر أن هذا الجنرال صاحب فكرة استخدام الأفريقيين السود فى الجيوش حين نشر كتابه بعنوان : القوة السوداء» كما نشر بعض مقالات ، وألقى كلمات فى عدة محاضرات عن استخدام السود كقوة . فيؤكد «عبدلاى لى» أن الجنرال ينادى باستخدام المحاربين الأسود حتى لا يعرض المحارب الأبيض (الأوروبى) للموت . لذلك أثار غضب «عبدلاى لى» وحنقه حين نادى «جول موشى» وزير داخلية فرنسا باستخدام جيوش المستعمرات الفرنسية لقمع الاضطرابات التى أثارها الشيوعيون فى فرنسا عام ١٩٤٨ ، لقد أثار هذا النداء غضب «عبدلاى لى» أكثر من اشتراك الأفريقيين فى الحربين العالميتين . كما يذكر الكاتب تدخل الكثير من أعضاء البرلمان الملونين السود فى هذا الموضوع حين أثير ، ونخص بالذكر منهم «هاماني ديورى» رئيس جمهورية النيجر الحالى وكيف أنه هاجم فكرة «الذين يستخدمون السود فى العمل غير الجدير بالجنس الأسود» كما تدخل أيضاً «فيلكس تشيكايا» نائب الكنغو الوسطى فقد صرح قائلاً : «لقد جعلوا من هؤلاء المحاربين قتلة . وقد استشعر «لى» العار من الصفة التى كانت تطلقها الصحافة الفرنسية اليسارية على الأفريقيين بأنهم (السفلة السود) أو من التعبير الذى أطلقه الكاتب والنائب الشيوعى «أندريه ديفور» إذ قال عن السود : السود الخائنون لطبقتهم» .

أما عن سيكوتورى فإنه يؤكد بأن أى تنظيم استعمارى لم يفرق بين الأسود والأبيض بطريقة ولا مخضبة أكثر من التفرقة التى قام بها جيش الاستعمار[1] .

ويشتد غضب رئيس جمهورية غينيا ويقول ثائراً بمناسبة استخدام الجيوش السوداء فى الحروب الاستعمارية بعد عام ١٩٤٥ فيقول : إنكم بالأمس وتحت العلم الفرنسى قد واجهتم مشكلة تتعلق بالضمير ، كان من اليسير معرفة مدى عمقها وأثرها (فى مراكش وتونس وفيتنام والجزائر)

(١) من كتاب «أعمال الحزب الديمقراطى الغينى والكفاح فى سبيل تحرير أفريقيا» ص ١٤٨ . ظهر هذا الكتاب فى مطابع مجلة «الوجود الأفريقى» وهو عبارة عن مختارات من خطب الرئيس سيكوتورى . والعنوان يماثل تماماً جميع الخطب التى جمعتها الحكومة الغينية للرئيس ونشرتها مجلة الوجود الأفريقى فى كوناكرى .

وكان لزاماً عليكم أن تلزموا الصمت وكان عليكم أن تطيعوا دون أن تفهموا وأن تعملوا دون أن تفكروا» (١) .

وقد أهدى «ليوبولد سيدار سنغور» ديواناً من الشعر إلى حملة المدافع الرشاشة السنغاليين وهو من أشهر الكتب السياسية التى كتبها سنغور وهذا الديوان بعنوان : «القرابين المقدسة السوداء» . وقد أظهر المؤلف اشمئزازه المتزايد إبتداء من القصيدة الأولى التى بعنوان «الظل» حيث يقول :

أنتم يا حملة المدافع السنغاليين .
يا أخوتى السود ذوى الأيدى الساخنة تحت برودةالموت .
من الذى يستطيع أن يثنى بكم غير أخيكم فى حمل السلاح .
أو أخيكم الذى يجرى فى عروقه نفس الدم .
لن أدع الكلام للوزراء أو القواد العسكريين . لا لن أدعه مطلقاً .
إن المديح الذى يخفى وراءه الاحتقار يدفنكم سرًّا .
إنكم لستم فقراء خاوى الوفاض ولستم بلا شرف . ولكنى سأمزق جميع إعلانات الدعاية لبيع الموز السنغالى والتى تمثل جنديًّا سنغاليًّا ضاحكاً والتى تزدان بها جميع حوائط فرنسا .

وإن ظلما آخر يحيق خاصة بالمحاربين القدماء الذين هم ضحايا التفرقة العنصرية عند عودتهم إلى بلادهم ، وأن موضوع هذا الظلم قد طرح فى المؤتمر الأفريقى الوطنى عام ١٩٥٠ فى روديسيا الشمالية وقد ركز عليه المؤتمر كموضوع هام وأساس للدعاية ، وقد كتب «كاوندا» فى كتابه «سوق تحرر زامبيا» عن قصة «الجندى المسرح» من الجيش وكيف أنه اصطدم باللوائح والتنظيمات التى تمنع دخول السود الفنادق والمطاعم المخصصة للبيض (الأوروبيين) فقد كانت لهذه القصة أكبر أثر فى إيلامى من الناحية القومية .

ويجب علينا أن نعرض لكاتب أفريق من كتاب «فترة ما بين الحربين» والذى اتخذ من نفسه مدافعاً عن فكرة الخدمة العسكرية فى الجيش الفرنسى ، هذا الكاتب الموتسى واسمه «ديم لوبسوم» يكتب فى ثورة عارمة فيقول فى كتابه «أسرار السحرة السود» مهاجماً أعمال الكهنة الوثنيين كتوزيع بعض الحشرات على الذين يستدعون للخدمة العسكرية ليجعلهم غير لائقين للخدمة أو إعطائهم بعض السموم البطيئة المفعول ليمرضوا حين يصلون إلى الثكنات العسكرية ليعودوا إلى بيوتهم دون أن يؤدوا الخدمة العسكرية ، ويقول الكاتب فى ختام حديثه بعد أن ذكر كراهية الشعب فى موسى

(١) الكتاب نفسه الذى سبق ذكره فى الملاحظة رقم (٢) .

للخدمة العسكرية وكيف أنها كانت سبباً لهجرة الشباب الأفريق من هذه المنطقة إلى الأماكن المجاورة وخاصة ساحل الذهب . يقول هذا الكاتب : من الأصلح أن نقاوم أعمال السخرة التى تعرض ما تقوم به فرنسا للخطر .

قانون المدنيين (قانون خاص بالوطنيين) :

قبل الحرب العالمية الثانية كان نظام الإمبراطورية الفرنسية يقضى بأن تعين أقلية من الأفريقيين تمثل سكان البلاد الأصليين فى المجالس الإدارية الاستشارية فى كل مستعمرة أفريقية ، وكانت القوانين والأنظمة الخاصة محددة ومعروفة باسم : قانون السكان المدنيين (الأصليين) . وكان من أبرز أحكام هذا القانون ما ينص على إنشاء نظام السخرة وكثيراً ما ذكره المثقفون الأفريقيون باسم قانون (الأشغال الشاقة) وكان هذا القانون هدفاً لنقدهم اللاذع .

وقد عرفه «جوزيف كى زربو» فى رسالته بعنوان : (اقتصاد الرق فى أفريقيا السوداء) قائلاً : إنه وسيلة الاستغلال الذى لا استقرار له . ويزيد الكاتب فكرته إيضاحاً فيقول : إنها أعمال سخرة للصالح العام ولأعمال الطرق والنقل بصفة خاصة ، فهى عقود إجبارية مع المستعمرين وضرائب عينية وزراعات إجبارية تماماً مثل ما يفعله البلجيكيون (مترسمين خطى الهولندى فإن دن بوش وما فعله فى جاوا) ولكنهم يفعلون ذلك على نطاق واسع فى المناطق المخصصة للسود ومشاركة جماعية للزراع فى المحاصيل ، ثم يستطرد الكاتب قائلاً : إن هذا القانون يسبب كثيراً من الوفيات . ولنذكر مثلا لهذه الوفيات البشعة ما تم فى مد الخط الحديدى من الكنغو إلى المحيط . فقد مات فى هذا العمل ٩٠٠ شخص من ٤٥٠٠ عملوا فى هذا المشروع (من يناير سنة ١٨٩٠ حتى مايو ١٨٩٢) ولو أنهم حتى يونيو سنة ١٨٩٢ كان العمال قد وصلوا فقط إلى الكيلو التاسع من هذا الطريق ، معنى ذلك أنه يمكن القول بأن كل عشرة أمتار لهذا الخط الحديدى كانت تتكلف حياة إنسان آدمى . كما أن هذا القانون الخاص بالمدنيين كان يعطى الإدارة الاستعمارية سلطات قضائية واسعة كشف عنها وفضحها الكاتب «عبد اللاى واد» فى مجلة الوجود الأفريقى فى العدد المخصص للطلبة السود .

أما عن الحقوق السياسية فإنها كانت فى الواقع مقصورة على مقاطعات السنغال الأربع والتى يتمتع سكانها بالجنسية الفرنسية ولهم حق المواطن الفرنسى ، ومع هذا فإن هذا النظام الخاص لم يخل من نواح كانت موضع نقد المثقفين الأفريقيين السنغاليين له . ومن بينهم الآن عميد السياسة الأفريقية فى المقاطعات الناطقة باللغة الفرنسية وهو «لابن جوى» رئيس الجمعية التشريعية الحالى فى

السنغال ، فقد عالج هذه المشكلة عام ١٩٢١ فى رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه فى القانون وكان عنوانها « الوضع السياسى للسنغاليين من أبناء المقاطعات التى يتمتع أهلها بالجنسية الفرنسية ويقرر « لابن جوى » بأن صفة المواطن الفرنسى التى منحت للسنغاليين بمقتضى القانون ١٦ الذى صدر فى الشهر الخامس من التقويم الجمهورى الفرنسى وأصدرته الجمهورية الفرنسية الأولى فى عامها الثانى والذى بمقتضاه ألغى نظام الرق . هذا القانون قد أثار مشاكل عديدة من الناحية القانونية بين نص هذا القانون والشريعة الإسلامية . وما يعيبه المؤلف منصب على نصوص الأحكام وعلى محاكم المستعمرات الفرنسية وعلى عدم تطبيق القرار الصادر فى الشهر الخامس من التقديم للجمهور (السالف الذكر) نجده يوجه اللوم والعيب من جراء إعاقة تطبيق مبدأ المساواة والمثل والذى أقره القرار السالف الذكر . وسيبقى هذا الموضوع موضع اهتمام هذا الكاتب طوال حياته السياسية فى المستقبل . والقانونان (للامين جوى) الذى ظل يدافع عنهما أمام البرلمان أكبر شاهد على حماسه وتمسكه . والقانون الأول منهما هو قانون ٧ مايو سنة ١٩٤٦ الذى يعلن أن جميع الرعايا فى الأراضى الفرنسية وفيما وراء البحار لهم صفة المواطن الفرنسى الذى يعيش فى فرنسا الأم . وهذا القانون المذكور هو أساس المادة ٨٠ من دستور سنة ١٩٤٦ ويقول « إن هذا القانون مستمد من القرار الإمبراطورى الرومانى المكون للاتحاد الفرنسى . والقانون الثانى هو الذى صدر فى عام ١٩٥٠ ويقضى بأن تمتع الموظفون الأفريقيون والفرنسيون بنفس الحقوق . ولكن طبق على الموظفين الأفريقيين المتعددى الزوجات ، فقد كانوا يتمتعون بنفس المرتبات والعلاوات العائلية . ولكن هذا التطبيق الضيق أثار كثيراً من المشاكل واستدعى ذلك كثيراً من الجدل وتبادل المكاتبات .

وفى رسالة أخرى قدمت للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون عام ١٩٤٣ ، ينقد فيها السيد /أنانى سانتوس « أحد زعماء حزب التوحو القومى قانون (حق اختيار السكان المحليين تطبيق القانون الفرنسى) .

ومن هذه اللحظة يرفض (سانتوس) رفضاً باتًا أن يقبل أن الحل بالتسليم فى المستقبل هو أن يطبق مبدأ تعميم التشريعات الفرنسية ، كما هى فى نصها على المستعمرات الفرنسية . فهو يرى أن مبدأ المثل (أى التشبه بالأوروبيين) مبدأ خاطئ وخطير فى نفس الوقت ، ويرى هذا القانونى التوجى عكس ذلك إذ يقول : إن الاستعمار معناه إنشاء مجتمع جديد له نظمه وحضارته الخاصة . وأن ما يجب أن تعمله هو إعداد مستقبل يتمتع فيه المستعمر والمستعمر بقوانين يكون مصدرها التقاليد لكل منهما . ويشرح هذا الرأى فى ختام كتابه فيقول : إن التشريع فى المستعمرات يجب أن

يتطور إلى درجة تجعل الأوروبى نفسه يضعها موضع اعتبار وتقدير فى المستقبل . إن هذا حلم لم يتحقق بعد ، ولكنه من الأوفق أن نفكر فيه من الآن لأنه الحل الوحيد الذى نرجو تحقيقه . إن الاستعمار حدث اجتماعى . إنه صلة بين شعبين يكون هذا الاتصال عنيفاً فى أوله ، ولكنه لا يلبث رويداً رويداً أن يصير عاديًّا وإذاً فيجب أن نفكر من الآن فى حل بواسطته لا يستطيع أحد الطرفين امتصاص الآخر وأن يحس فيه الاثنان أنهما بصدد خلق علاقات إنسانية جديدة ، ويشحذ كل منهما قواه لعمل حضارة على مستوى أحسن .

إن دستور عام ١٩٤٦ والذى كان ينظم الأراضى الفرنسية فيما وراء البحار والتوصيات التى اتخذت فى مؤتمر برازافيل والذى رأسه الجنرال ديجول عام ١٩٤٤ ، والذى فيه نشأ الاتحاد الفرنسى . هذا الدستور قد ألغى الأشغال الشاقة والسخرة ومنح الممتلكات الفرنسية جميعات استشارية وممثلين ونواباً عنها فى البرلمان الفرنسى فى فرنسا .

وقد اعتبر «محمود دبوب» مؤسس حزب الاستقلال الأفريقى فيما بعد وصاحب الآراء الماركسية ، اعتبر هذا الاصلاح إصلاحاً سلبيًّا . فقد كتب فى مجلة الوجود الأفريقى عام ١٩٥٣ تحت عنوان : «إن الحل الوحيد هو الاستقلال التام» قال فى مقالة : سيقولون طبعاً أن مرحلة الاستعمار العنيف قد تم تخطيها منذ زمن طويل . وأن الشعوب الأوروبية (المستعمرة) قد اعترفت بذنبها حين واجهت مسئولياتها المتزايدة وأنها تحاول أن تصلح ما سبق أن ارتكبت من أخطاء إذا كان هذا ممكناً . وأن المستعمر والمستعمر متفقان تماماً على أدانة النظام الاستعمارى وأنهما قررا معاً أن يتعاونا بمجهودهما على بناء مستقبل أحسن . كل هذا صحيح من الناحية النظرية ولكن لم يطرأ أى تغيير من الناحية العملية . فالكومنولث والاتحاد الفرنسى لن يغيرا ما فى قرارة نفسيهما وجوهر سياستهما وإنما يمكن تغيير الشكليات فقط وينتهى «محمود دبوب» من مقاله إلى النتيجة الحتمية وهى «إن الاستقلال التام ضرورة» .

وكان حكم «عبد لاى واد» يختلف تماماً عن الحكم السابق ، فقد قال : إن مذهب الاستعمار الفرنسى يعتبر تحرراً بالقياس إلى الاستعمار البلجيكى مثلاً ، وإنه يمكن اعتبار الاتحاد الفرنسى أنه نصر وأن عبء المستعمرين على عاتق المستعمرين خفيف جدًّا وكأنه خطوة أولى نحو الاستقلال .

أما «ألبير تيفودجييه» فإنه يحلل نظم الاتحاد الفرنسى فى كتابه فى الفصل بعنوان «هل مات الاستعمار وإنتهى ؟ فهو يعارض كذلك فكرة أن سياسة الاستعمار قد غيرت من طبيعتها بعد الحرب . فهو يسقط من حسابه أولاً الحل الذى اقترحه مؤتمر برازافيل وهو أن الهدف من الحضارة الجديدة

التى أوجدتها فرنسا يبعد أية فكرة للاستقلال الذاتى كما يباعد بين احتمال تكوين حكومات محلية مستقلة فيما بعد نتيجة لأى تطور خارج كتلة الإمبراطورية الفرنسية ، كما يشرح الكاتب فى وضوح فكرة «أنه إذا كان دستور سنة ١٩٤٦ يسمح بتمثيل نواب عن مستعمرات ما وراء البحار فى البرلمان الفرنسى فإنه يبين النسبة قائلاً إن النائب يمثل سبعمائة ألف فى المستعمرات فى حين أن زميله النائب الفرنسى ينتخب عن كل خمسين ألفاً ، ويعتمد «تيفودجيريه» على كاتب أوروبى فى توضيح هذا التحديد العددى للنواب والشيوخ الأفريقيين فى البرلمان الفرنسى فيقول : لو أننا زدنا عدد هؤلاء الممثلين إلى العدد اللازم لأصبح الحاصلون على الجنسية الفرنسية منهم ممسكين بزمام الأحزاب السياسية فى الوطن الأم (فى فرنسا) ولتحكموا فى الأغلبية بحيث يحولون هذه الأغلبية من ناحية إلى أخرى ، ولربما كونوا هم أنفسهم هذه الأغلبية ويكون نتيجة لذلك أن تصوت هذه الأغلبية بحيث يحولون هذه الأغلبية المكونة ممن يتزوجون بأكثر من زوجة على القانون المدنى الفرنسى ولأصبحت الصورة قاتمة وسوداء لأن من يصوت على القانون الجنائى الفرنسى هم أبناء أكلة اللحوم البشرية (الأفريقيين) [1] .

لقد وكل إلى السيد (لامين جوى) الذى كان عضواً فى التنظيم الرئيسى للحزب الاشتراكى الفرنسى بباريس وكل إليه الدفاع عن الاتحاد الفرنسى . وفى كتاب «لامين جوى» الذى قدمه «جوى موليه» سكرتير عام الحزب الاشتراكى الفرنسى والذى ظهر قبل صدور قانون عام ٤٦ (الذى منح المستعمرات استقلالاً ذاتيًا) نجد أن المؤلف «لامين جوى» لا يعتبر هذا القانون الذى صدر سنة ٤٦ نقطة نهائية . ولو أنه يؤمن بالاتحاد الفرنسى وبفرنسا نفسها بلد الحريات فإنه يقترح مع ذلك عمل إصلاحات تساير اشتراك الأفريقيين اشتراكاً فعليًا وفعالاً فى السلطة ، ويوحى بإنشاء جمعية على المستوى القومى يكون من اختصاصها التعرف على مشاكل ما وراء البحار الكبرى ، ويكون لهذه الجمعية كامل السلطة كما يكون هناك برلمان خاص يكون فيه أغلبية المنتخبين من غير أبناء الوطن الأم (فرنسا) ، بذلك تثار فيه مشاكل أقل من الناحيتين السياسية والعاطفية مشاكل أقل من الناحيتين السياسية والعاطفية ، فيمكن تعديل لائحة الجمعية الحالية (جمعية الاتحاد الفرنسى) بحيث تساير هذا الاتجاه المقترح .

---

(١) مأخوذ من كتاب «التحدير» للكاتب هنرى كلهان . ذكره روسو نادير فى كتابه «المستعمرون» أمام الاتحاد الفرنسى .

وفى ختام حديثه ينحى جانباً الاستقلال الذى منحته هولندا لأندونيسيا وبريطانيا لساحل الذهب ، ولكنه يؤكد فى إصرار بقوله : إننا لا نطالب فرنسا بأكثر من تطبيق المساواة فى المعاملة القانونية تطبيقاً دقيقاً . (متجاهلاً القانون الأساسى للمستعمرات ولكن اقتراحه هذا يقترب كثيراً من اقتراح رابطة مجلس الشيوخ الذى أنشئ طبقاً لدستور سنة ١٩٥٨) .

وعلى نمط آخر نجد أن « دودو تيام » وزير خارجية السنغال الحالى يجتهد فى تحليل نتائج الإصلاح التى تجمعت عن قانون سنة ١٩٤٦ كما يجتهد فى تحديد وتعريف هذه النتائج من منح الجنسية الفرنسية لأهالى الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار .

فبينما نجد « لامين جوى » يعتبر تطبيق الجنسية الفرنسية خطوة كبرى للتقدم وللسير إلى أمام نحو معاملة المثل نجد أنه على العكس عند « دودو تيام » إن الصعوبات التى نشأت عند التطبيق كانت كثيرة فأثارته وجعلته يصل إلى نتيجة ملموسة ، وهى أن معاملة المثل هذه غير عملية . وليس معنى ذلك أن هذا الكاتب الأخير معاد للاتحاد الفرنسى بل العكس فإنه يرى فى الاستعمار بالرغم من إخطائه التى يرتكبها وانحرافاته وسيلة لتبادل قيم الحضارة ، فهو يرفض وصف قانون الإصلاح بأنه قانون انتخابى بسيط بل يقرر أن هذا الإصلاح يجب أن يتعدى المفهوم الضيق برغم أن الفوارق والحدود بين القانون العام والقانون الخاص لا تزال ماثلة غير واضحة . وأن هذه الصعوبات الناجمة عن مشكلة بذاتها (خاصة) توضح للكاتب حقيقة عامة وهى خطورة نقل قانون عمل لمجتمع معين إلى مجتمع آخر مخالف له تماماً . ويسرد لذلك عدة حالات للتقاضى حيث تصطدم بها التقاليد الفرنسية مع التقاليد الأفريقية ، ومع ذلك كان الحكم فيها فى صالح القانون الفرنسى ووفقاً للنظرية القائلة « النظام العام للمستعمرات » .

وتتلخص رسالة « دود وتيام » التى نال بها الدكتوراه فى أنها دفاع ومرافعة ضد فكرة المعاملة بالمثل . لذلك فهو يهنئ نفسه لأن مقدمة دستور سنة ١٩٤٦ الذى أنشأ الاتحاد الفرنسى تنص صراحة على أن هذا الاتحاد يكون من أمم وشعوب تتضافر جهودها جميعاً ومواردها لتنمية حضارة كل منها ، ويصر المؤلف على إبراز كلمة « الأمم والشعوب » فى صيغة الجمع ، فقد أثار النقاش حوله جدل عنيف فى البرلمان الفرنسى . ويختم المؤلف حديثه هذا قائلا : وبعد كل هذه المناقشات أكد الدستور التعدد الثقافى الذى هو أساس تكوين الاتحاد الفرنسى . وكان وجود الحضارات المختلفة فى أراضى ما وراء البحار أصبحت حدثاً قضائيًا . وأن احترام الحضارات هذه قد ارتقى إلى

مضاف للمبدأ الدستورى البعيد عن متناول المشرّع . واليوم يدخل واضعو الدساتير فى اعتبارهم أنه من المستحيل نقل الجنسية الفرنسية إلى ما وراء البحار دون إجراء تغييرات ضرورية .

بلقان جديد [1] :

لقد ارتبط القانون الأساسى للمستعمرات الأفريقية الصادر فى سنة ١٩٤٦ باسم « جاستون ديفير » الذى كان وزيراً فى وزارة « جى موليه » وكان وزير المستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار عام ١٩٥٦ . فهو الذى أنشأ نظام الاستقلال الذاتى (استقلال داخلى نسبى) فى كل دولة من دول أفريقيا الفرنسية . وجعل فيها حكومة محلية يرأسها الحاكم الفرنسى وأعضاؤها وزراء أفريقيون وهذه الهيئة تسمى مجلس الحاكم . كما أنه أعطى الجمعيات الدستورية الاستشارية المحلية سلطات تشريعية .

ويعارض « ديفودجريه » القانون الأساسى هذا قائلاً : إنه عند تطبيقه لأول مرة قد ثبت مبدأ من مبادىء الاستعمار الفرنسى . ولو أنه أراد ألا يقلل من شأن الذين (واضعى هذا القانون) اعتقدوا أنهم بوصفه يجنبون فرنسا متاعب أفريقية جديدة منها الاندماج والتشبه بالأوروبيين حين يتحدثون عن « المحافظة على تضافر العناصر التى تتكون منها الجمهورية الفرنسية » غير ناظرين إلى السيطرة السياسية والاقتصادية . فى الواقع أن السلطة المركزية (الحكومة الفرنسية) هى التى تدير الإدارات التى تتحكم فى مصير الأراضى الأفريقية . ذلك لأن الدفاع الوطنى والعلاقات الخارجية والتجارة والتخطيط والاعتمادات المالية والاتصالات التليفونية والتلغرافية والموانئ والجمارك والسكك الحديدية والطرق الداخلية والأمن والشرطة والمحاكم والتعليم العالى وغيرها كل ذلك فى أيدى الحكومة الفرنسية ووقف عليها .

وعلى ذلك كان تحرر غانا شديد الوطأة على نظام الإصلاح للاتحاد الفرنسى يبين ذلك « ديفورجيه » ويوضحه قائلاً : « فى اللحظة التى يصبح فيها ساحل الذهب دولة على قدم المساواة مع بلجيكا وفرنسا وإنجلترا فهل سيفهم الفرنسى أن هذا القانون الأساسى للاتحاد الفرنسى يعتبر نقطة تخلف فحسب ، أو أنه مناقض لسير عجلة التاريخ التى تمر بالعالم اليوم ؟ ! فقد عرفت غانا من قبل الوصول إلى الاستقلال التام نظام الاستقلال الذاتى الداخلى ولكن دكتور انكروما

(١) نعتقد أن « أندريه بلانشيه » إخصائى الشئون الأفريقية فى جريدة « الموند » هو الذى أطلق هذا التعبير الجديد والذى انتشر انتشاراً واسعاً .

وشعبه يعرفون جيداً أن هذه المرحلة سوف تنتهى تماماً يوم ١٩٥٧/٣/٦ .

ويرى سيكوتورى أن الخطأ الأكبر فى هذا القانون أنه جعل من أفريقيا «بلقاناً أخرى» فهذا النظام الذى وضعه الوزير السيد «ديفير» قد جهل البنيان الفيدرالى القائم فى أفريقيا الغربية الفرنسية وكذا القائم فى أفريقيا الاستوائية الفرنسية وأنه لم يمنح الاستقلال الذاتى فى الداخل إلا فى إطار كل دولة على حدة . ولكن الزعيم والقائد الغينى يرى أيضاً فى هذا القانون «أنه خطوة نحو الاستقلال التام ، ذلك لأنه سيسمح للبلاد فى أن تتعاون فى حرية مع فرنسا ولأنها ستناقش المشاكل المشتركة بينهما على قدم المساواة» .

وتاريخ هذا النص هو يناير ١٩٥٨ ويعتبر هذا التقرير هو التقرير المعنوى والسياسى لسيكوتورى باعتباره السكرتير العام لمؤتمر الحزب الديمقراطى الغينى ، ونحن نعلم أن الزعيم الغينى كان لا يريد الانفصال عن فرنسا .

لقد أنشأ دستور سنة ١٩٥٨ رابطة الدول الفرنسية ، ولقد ازداد به مفهوم الاستقلال الذاتى زيادة كبيرة بينما أصبحت الشئون المشتركة بين فرنسا والدول الأفريقية الجديدة من اختصاص المجلس التنفيذى الذى يجمع رؤساء الحكومات الأفريقية ، ويرأسه رئيس الجمهورية الفرنسية ومجلس الشيوخ المكون من رابطة الاتحاد الفرنسى ، وكانت اختصاصات هذه المجالس غامضة ولكن هذا الدستور الجديد قد أعطى لكل دولة من هذه الدول حق الانفصال وهو الطريق التى اجتازتها غينيا فى الاستفتاء الذى تم فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ .

وللمرة الثانية يوجه سيكوتورى اللوم إلى المشرع الفرنسى بحجة أنه يريد أن يجعل من أفريقيا بلقاناً جديداً ، ويؤكد ذلك أن الاعتقاد كان سبباً رئيسيًّا فى أن تقول غينيا «لا» فى الاستفتاء المذكور .

ولعل النص الأكثر وضوحاً فى هذا الصدد هو خطاب سيكوتورى الذى أذاعته الإذاعة يوم ٢٨ أغسطس أى قبل الاستفتاء بشهر واحد . ولقد تركز على نقطتين كبيرتين هما : جعل أفريقيا بلقاناً آخر ، الوحدة الأفريقية . فقد قال سيكوتورى «علينا أن نذكر أن المجلس الأعلى فى أفريقيا الغربية الفرنسية قد صوت ثلاث مرات ضد جعل أفريقيا بلقاناً آخر . وأن حزب التجمع الأفريقى فى مؤتمره بمدينة باماكو وما اتخذ من قرارات اقترعت عليها جمعيات برلمانية ليدل على إرادة واحدة فى المحافظة على الاتحادات الفيدرالية الأفريقية ، وأن هذا الدستور الجديد لم يراع أنه يؤدى إلى تقسيم تعسفى ويعوق إمكانيات تقدم أفريقيا اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا . وإنى أؤكد إذاً أنه

فى حالة رفض الحكومة الفرنسية لآمال أفريقيا المشروعة فإن مشروع فرنسا الدستورى هذا سوف يراعى المقترحات المشروعة لأفريقيا وأن شعب غينيا سيحصل على استقلاله التام فى ٢٨ سبتمبر المقبل وسيطالب بمباحثات مع فرنسا على أساس عقد اتفاقية مشتركة بينهما .

وفى حالة رفض فرنسا ستقرر غينيا دون أن تضيع وقتها طريقاً آخر لمصيرها على أن يكون هذا الطريق الجديد يتيح لها أكثر وأكثر بأن تستمر فى كفاحها بنجاح فى سبيل تحرر وحدة أفريقيا .

وفى ٤ أغسطس سنة ١٩٦٠ عدل دستور رابطة الشعوب الفرنسية ليسمح لدول أفريقية مستقلة بالبقاء فى قلب هذه الرابطة وقد سجل الكاتب الصحفى « فيليب دكرين » فى صحيفة الموند « عدد ١٢ أبريل ١٩٦١) مايأتى : إن هذا التعديل يعطى الحق بتأجيل الطلب الذى قدمته غينيا لمدة ٢١ شهراً عند نظر الاستفتاء فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ .

وفى خلال هذا الوقت ما الذى حدث إذاً ؟ لقد تكونت دولة فيدرالية تسمى « مالى » وتشمل السودان الفرنسى والسنغال . وفى خريف سنة ١٩٥٩ أوعز نائب رئيس الدولة الفيدرالية لمالى إلى جريدة الموند برغبة فى تحويل الشعوب الفرنسية إلى اتحاد فيدرالى يضم قوميات مختلفة ويجمع بين فرنسا وبعض الدول الأفريقية المستقلة . وفى عام ١٩٦٠ اختارت دول الوفاق الأربع : ساحل العاج – النيجر – فولتا العليا – داهومى – الاستقلال وانفصلت عن رابطة الدول الفرنسية ولكنها أبقت على تعاونها مع فرنسا فى شكل اتفاقيات .

إن هذا التعديل يعطى الحق فى الطلب الذى قدمته غينيا وقت الاستفتاء الدستورى فى سبتمبر ١٩٤٨ ولكن بعد تأخير ٢١ شهرا .

وفى يوليو سنة ١٩٥٩ أثناء انعقاد المؤتمر التأسيسى لحزب الاتحاد الأفريقى كان السيد « سنغور » يجتهد فى إقناع فرنسا والمؤتمرين بالبرهان فى أن مصلحة فرنسا لا يمكن أن تكون بجعل أفريقيا بلقاناً جديداً ، فيقول فى كتابه « الأمة وطريق الاشتراكية الأفريقية » ما يأتى : إن إعادة تكوين أفريقيا الغربية الفرنسية الفيدرالية على أسس جديدة سيكون فى صالح الأفريقيين من الناحية السياسية ، وهذا ينتهى إلى حقيقة مفهومنا لمعنى الأمة . كما أنه من الواضح أن هذا التكوين الجديد سيكون فى صالح فرنسا من الناحية السياسية أيضاً . وهذا واضح لمن يتابع امتداد الحرب الباردة إلى أفريقيا السوداء . فالدول الناطقة باللغة الفرنسية تخاطر حين تنحدر الواحدة إثر الأخرى إلى جانب الكومنولث البريطانى أو إلى الديموقراطيات الشعبية . فما عسى أن تفعله داهومى بين نيجيريا وغانا ؟ وكيف يستطيع سكان النيجر الفقراء الذين يرزحون تحت وطأة حكم إقطاعى أن يقاوموا جذب

دولة نيجيريا ذات الثروة وديمقراطيتها وكثرة عدد سكانها البالغ ٣٥ مليون نسمة . إننا نخشى بلقانٌ جديداً فى أفريقيا ، فإن ذلك سيعد مؤتمراً جديداً (كمؤتمر بان دونج) لهذه الرابطة . فدول أفريقيا الغربية الفرنسية (الثمان) ستخسر حتماً فى الميدان الاقتصادى فى حالة خلق بلقان جديد فى أفريقيا . كما ستخسر فرنسا هى الأخرى ، وقد قلت ذلك فى مناسبات أخرى كثيرة . كما أثبت الخبراء حسابيًّا أننا إذا لم نعد تكوين السوق المشتركة بين دول أفريقيا الغربية الفرنسية فإن فرنسا ستعمد إلى تخصيص ٧ مليارات فرنك سنويا زيادة على اعتمادات المعونة والتعاون من ميزانية رابطة الشعوب الفرنسية ، وذلك لسد عجز ميزانية الدول الفقيرة التى فى هذه الرابطة .

المثوى الأخير للإدارة غير المباشرة :

كان لإلغاء نظام رؤساء العشائر التقليدى الذين كانت تحتفظ بهم وتدفع مكافآتهم الإدارة الاستعمارية ، كان هذا الإلغاء شرطاً من الشروط الضرورية لتحرر البلاد سياسياً . هكذا بدا هذا الإلغاء لسيكوتورى . فقد كان هذا الشرط بالنسبة لهذا الزعيم مقدمة لا غنى عنها للاستقلال حتى أنه وضع هذا العنوان لكتاب من كتبه نشرته مجلة الوجود الأفريقى ، ويسرد فى هذا الكتاب كيف تم هذا الإلغاء .

وفى الواقع فإن موقف سيكوتورى من رؤساء العشائر هو نفس موقف معظم الأحزاب الوطنية الأفريقية التى تعتبرهم بوجه عام دعاة رجعية ، فقد استخدم كثير منهم للتأثير على الناخبين الأفريقيين ليصوتوا للحفاظ على سيطرة المستعمر .

وفى بلدان ساحل أفريقيا الغربى كان لرؤساء العشائر سلطان ونفوذ واسع جداً خاصة داخل الأراضى ، أى فى وسط البلاد ، حيث يوجد الفلاحون فى حين أنه فى المدن وخاصة مدن الساحل الكبرى فإن اختلاط السكان (من مولدين) وكذا سيطرة النقابات ودرجة تطور السكان وتقدمهم قللت من سيطرة رؤساء العشائر وسلطانهم . وكان الأمر متشابهاً فى غينيا بالنسبة لرؤساء قبائل «البيل» فى جبال «فوتا جالون» كما كان الأمر مماثلا فى سيراليون حيث قام رؤساء المحميات الداخلية (الأراضى الداخلية) فى وجه سلالة العبيد فى مستعمرة «فريتون» وفى غانا حيث انحاز ملك شانتى التقليدى ضد الجبهة المعارضة لنكروما . وفى توجو حيث لم تستطع لجنة توجو تحت زعامة السيد سيلفانوس أوليمبيو التأثير على قبائل باساري أو قبائل كابريه . وفى نيجريا بوجه خاص

حيث لعب كبار الأمراء من قبائل البيل فى إقليم كانو وإقليم كاتسينا وإقليم سوكوتو دوراً هاماً فى الحياة السياسية لهذه البلاد .

وفى اتحاد جنوب أفريقيا ارتكزت الإدارة على رؤساء العشائر واعتمدت عليهم فى الجهات المخصصة للقبائل وقد جعلت « فيرفورد » من التنافس بين القبائل حكومات سوداء مستقلة استقلالا ذاتيا .

وكثيرا ما تعارضت سيطرة رؤساء العشائر على المحافظة على النظام القبلى وكثيراً ما أثبتت الأحزاب الوطنية الأفريقية وجود النظام القبلى بوجود رؤساء العشائر . وكان من الواضح على هذا الاعتبار أن يدافع زعماء العشائر عن الاستقلال المحلى ، أى استقلال كل واحد منهم فى منطقته ، وعلى هذا فإن محافظتهم التقليدية كثيراً ما دفعتهم للدفاع عن النظام الفيدرالى .

وهكذا كانت منطقة نيجيريا آخر منطقة طالبت بالاستقلال وعليه كان « كاباكادى بوجاندا » من أشد أنصار جعل أوغندا دولة فيدرالية .

وأخذت هذه الظاهرة فى الاتساع والامتداد خاصة فى الأراضى البريطانية بسبب مبدأ الاستعمار البريطانى القائم على الحكم غير المباشر والإدارة غير المباشرة الذى يتلخص فى وضع أكبر سلطة محلية ممكنة فى أيدى الحكام المحليين التقليديين . وابتكر هذا النوع من الحكم لورد ليوجارد فى نيجيريا .

وفى أفريقيا الفرنسية نجد أن مدارس أبناء الزعماء المحليين والتى أنشأها « فيدهارب » قد نهجت نفس الأسلوب ، غير أنها لم تدم إلا وقتاً محدوداً . ففى الحقيقة لم يقم زعماء « فوتاجالون » ولا الملوك الكبار (موراتابا) فى قبائل موسى بأى دور هام فى أفريقيا الفرنسية مثل الدور الذى قام به أمراء نيجيريا أو فى كاباكابوجندا .

فلم يكن عجيباً فى كل هذه الحالات أن نجد القوميين فى أفريقيا الناطقة بالإنجليزية يدينون فى حكمهم بنظام الحكم غير المباشر ونظام رؤساء العشائر والنظام القبلى والنظام الفيدرالى .

فقد كشف جورج بادمور عن مخازى وفضائع نظام رؤساء العشائر والنظام القبلى فى أسلوب عنيف فى الباب المخصص لنيجيريا فى كتابه « وحدة البلاد الأفريقية » وهذا الكاتب هو المستشار السياسى للشئون الأفريقية للرئيس نيكروما وصاحب نظرية « وحدة البلاد الأفريقية » .

فهذا الكاتب الجامايكى يدافع بصفة عامة عن نظريات الدكتور « أزيكويه » فى المركزية والوحدوية ضد آراء ونظريات « أبافيمى اوفلفو » رئيس الوزراء السابق للمنطقة الغربية وصاحب نظرية « اتحاد نيجيريا الفيدرالية » وذلك فى كتابه بعنوان « الطريق إلى حرية نيجيريا » إن موقف كل

من «أزيكويه» وأفولفو» ليتضح بكل معانيه إذا عرفنا أن رؤساء العشائر فى فيله بوروبا فى المنطقة الغربية هم ورثة الممالك التاريخية المسماة «ايفيه» و «أويو» وأن لهم كياناً متيناً فى حين أن هذا الكيان غير موجود عمليًا فى بلاد «ايبو» وهى القبيلة الرئيسية فى المنطقة الشرقية والتى ينتمى إليها الدكتور ازيكويه ، كما أن السيد «أفولفو» ينحدر من إحدى عائلات رؤساء العشائر. ويكتب «بادمور» فى كتابه وحدة البلاد الأفريقية بأن السيد افولفو من أنصار هدم السلطان القبلى «يقرر بادمور هذا ويذكرنا بجملة قالها الزعيم النيجيرى : إن نيجيريا ليست أمة بذاتها ولكنها محض تعبير جغرافى» وإذا فليس هناك نيجيريون [١] :

ويكتب «نتيونج . ى . أكيان» من ناحيته بعد أن تحدث عن المظاهر الإيجابية للنظام الذى ابتكره لورد لوجارد نراه يصدر حكمه عنه فى كتابه بعنوان : «المثوى الأخير لنظام الحكم غير المباشر» فيقول : أرى أن هذا النظام قد أدى عمليًا إلى نوع من التفرقة العنصرية فى الأراضى المستعمرة . حيث يعتبر الأوروبيون دائماً السكان المحليين وكأنهم ينتمون إلى جنس أحط منهم بكثير وأنهم لا يصلحون إلا لقطع الأخشاب ونزح الماء [٢].

وفى غانا يعبر الكاتب «ح . جورسون أمامو» السفير الحالى لغانا فى بودابست فى كتابه التاريخى عن السنوات السابقة على الاستقلال فى بلاده عن عدم ثقته فى القومية الأفريقية عن طريق نظام

(١) فى كتاب الوحدة الأفريقية : إن تطور نيجيريا منذ الاستقلال بلغت للنظر حقًا . فقد اتحد الحزب الوطنى النيجيرى مع شمال الكاميرون فى مؤتمر شعوب الشمال الذى كونته الطبقة الأرستقراطية من شعب فولانى فى الشمال ضد طبقة الفلاحين والعمال فى شمال نيجيريا . وهذا الاتحاد بين الحزب التقدمى والحزب المحافظ قد أثار الدهشة . ونرى أن السيد افولفو وضع فى السجن بتهمة اختلاس الأموال العامة وقد كان زعيم المعارضة فى البرلمان الفيدرالى . وهو زعيم حزب العمال والفلاحين فى غرب نيجيريا . وأن إزيكويه هو زعيم الحزب الوطنى للاتحاد مع شمال الكاميرون .

(٢) أن هذا المؤلف «أكيان» من منطقة شرق نيجيريا التى كانت أول مستعمرة إنجليزية فى أفريقيا أجريت فيها تجربة الإدارة المحلية الديمقراطية لتحل محل نظام حكم الإدارة المحلية المعادية أو نظام الحكم غير المباشر . والهدف من كتابه هو دراسة هذا الإصلاح (ص ١٣٢) .

يرجع إلى كتاب نيكروما بخصوص هذا الدستور . ومن الأفضل أن تقارن هذا القانون بما اتخذه سيكوتورى لوضع حد لسياسة المناطق . وتتم الانتخابات فى غينيا بطريقة الاقتراع بقائمة على المستوى القومى أى أن كل حزب يرشح فى بعض الدوائر فقط وأن يقدم عدداً من الأسماء يساوى عدد الكراسى النيابية التى يجب أن يشغلها بند ٤ من الدستور .

العشائر ونظام الإدارة غير المباشر ، وهو يعدد أسباب الاضطرابات التى حدثت سنة ١٩٤٨ فى أكرا فيقول : كانت جميع الوظائف الهامة فى الحكومة يشغلها الموظفون الإنجليز والذين كانوا يستندون على رؤساء العشائر ، فكانت البلاد يحكمها هؤلاء الزعماء حتى أنه قبل هذا الوقت فإن رؤساء العشائر عقدوا اتفاقاً مع الإنجليز على خنق آمال الشعب السياسية : كما يقول أمامو أيضا فى وضع آخر من هذا الكتاب نفسه : لقد كان الإنجليز يحكمون ساحل الذهب بواسطة رؤساء العشائر ، وبهذا النظام غير المباشر فقد رؤساء العشائر ، منزلتهم فى نفس غالبية الشعب .

ونجد أن الزعيم الروديسى الوطنى «كينيث كاوندا» يتفق مع أمامو فى عدم ثقته تجاه السلطات التقليدية فيقول فى كتابه « سنحرر زامبيا » : إنى أرغب أن أكتب فى يوم من الأيام كتاباً أستقى معلوماتى فيه من ملفات المؤتمر الأفريقى الوطنى القديمة لكى أروى قصة مناورات الإدارة المحلية فى الإقليم فى استخدام الرؤساء ورؤساء العشائر فى سحقنا . هذه القصة مخجلة حقاً : ثم نراه يبرر معارضته لمشروع الدستور الذى يلزم كل مرشح للانتخابات بأن يحوز على موافقة ثلثى رؤساء العشائر فى دائرته الانتخابية ، ولهذا يقول : إننا نعلم جميعا أن رؤساء العشائر طبقة فى أيدى الإداريين الأجانب » .

وفى غانا كانت معظم الأحزاب المعارضة لحزب نيكروما تستند على أساس السلطة المحلية مثل حركة التحرير الوطنى التى كان يؤيدها ملك أشانتى « أشانتهين» ومؤتمر شعوب الشمال ومؤتمر توجولاند ، واضطرت هذه الأحزاب فيما بعد – أى فى سنة ١٩٥٧ – أن تندمج مع حزب الاتحاد بمقتضى نص دستورى يمنع وجود منظمات أو هيئات لها طابع دينى أو قبائلى . ولطالما طالب حزب الاتحاد بدستور فيدرالى ولكن دون أن ينجح فى مطلبه [1] .

ليس من المستغرب أن نجد دفاعا عن نظام الإدارة غير المباشر فى شخص « السيد أحمد وبيللو رئيس وزراء شمال نيجيريا . فالسيد أحمد وبيللو هذا واسمه سارداما (وهو لقب الأنبل النبلاء) من إقليم سوكوتو . فهو ينحدر من سلالة المصلح المسلم الكبير والفاتح البيلى « عثمان دان فوديو» أول من

---

(١) يحلل الزعيم الغينى المعارض فى كتابه : «مركز رؤساء العشائر فى طريقة الحكم الحديثة فى أشانتى سبب الهبوط للنفوذ الشرعى الذى سببه نظام الحكم غير المباشر لرؤساء العشائر أن شعب أشانتى يعتبر نفسه أمة واحدة بسبب ولائه للعرش الذهبى رمز الملكية الأشانتية المقدس . ويمتدح الكاتب أعمال الملك الخاصة وأنه رئيس مجلس الفيدرالى المكون من رؤساء العشائر . وقد أعادت إنجلترا تكوين هذه اللجنة عام ١٩٣٥ . لقد اختار هذا الكاتب المنفى .

أعطى إشارة الثورة ضد ملوك الهوسا فى القرن السابع عشر ، والذى كان من نتائج هذه الثورة أن استولى شعب فولانى على السلطة وأسسوا الإمارات التى لا تزال باقية إلى الآن . وإذا فهو أحد ممثلى هذه الإرستقراطية التى أوحت إلى «لورد لوجارد» بفكرة الحكم غير المباشر. كتب السيد أحمد وبيللو فى كتاب تاريخ حياته بعنوان : «حياتى» يقول : لقد لمس لورد لوجارد ذكاء أمراء فولانى وحنكتهم كما خبر ذكاء موظفيهم فى الإدارة فأوحى إليه هذا الذكاء بفكرة الحكم غير المباشر أو الإدارة المحلية والتى اختصها بعنايته والتى سارت سيراً حسناً منذ ذلك الوقت .

والصعوبة الوحيدة (العقبة الوحيدة) من وجهة نظره هى أن نظام حكم أمراء فولانى لا يستطيع تغطية البلاد كلها .

وقد حاول الإنجليز تطبيق نظام مماثل لنظام فولانى فى مناطق الوثنيين ولكن هذا النظام باء بالفشل الذريع .

وليس هناك من شك فى أن انفصال «كاتنجا» قد أمد المثقفين الأفريقيين الذين طرحوا جانباً النظام الفيدرالى . أمدهم بطريقة مثلى وساحرة للسير بالأمور كما أعانهم على تعريف القوى الرجعية التى تعارض التحرر الأفريق تعريفاً صحيحاً . فكانت المساندة التى لقيها «تشومبى» مثلا ناطقاً لوسائل الاستعمار التى استخدمها لإثارة الانقسامات .

ذلك ما يشرحه جيدا «نيكروما» فى كتابه (أفريقيا يجب أن تتحد) فيقول : ربما يقدم لنا الكونغو خير مثل للوسيلة التى تستخدم وتستغل لبذر الخلافات القبلية وكذا الانتهازية السياسية وذلك لتفتيت أراض متحدة ولنشر الانقسام بينها . وأن الهدف من توجيه الانتهازيين المحليين من بعيد أمثال : «موبزتشومبى» هو الاحتفاظ بالسيطرة الاقتصادية من جانب وإيقاف التصميم الأفريق على تحقيق وحدة القارة فى جو مستقل الا تعوقه قيود أو عوائق .

لقد ثار الوطنيون الأفريقيون لنفس الفكرة ولهذا المفهوم (الإدارة الاستعمارية) فوسيلة المستعمر هى دائماً ضرب كل مجموعة بشرية بالأخرى وكذا خلق منازعات ومخالفات بين شعب وآخر . وقد اهتم المؤلف الكنغولى «مابيكا كالاندا» فى كتابه (بالوبا ولولودا تبحثان عن توازن جديد) اهتم بأن يكشف كيف كانت الإدارة البلجيكية فى إقليم كازاى تشجع الفتنة والشقاق بين هاتين القبيلتين وكيف استعر الشقاق بينهما وبلغ ذروته فى عام ١٩٥٩ ، ثم يستطرد الكاتب فى عرضه لأعمال المديرين البلجيكيين لتعميق الخلاف بينهما برغم ما بين القبيلتين من أواصر القربى (إذ أن قبيلة لولودا ليست فى الواقع إلا فرعاً من قبيلة بالوبا) .

وأخيرا ترى الكاتب الجزائرى (عمار أوزيجان) يقوم فى وجه الوضع الفرنسى فى الجزائر الذى يتلخص فى أن الفرنسيين يجعلون مجموعات الشعب الجزائرى تعارض بعضها البعض ، ويفضح دسائس الفرنسيين المستعمرين مؤرخين كانوا أو رجال قضاء الذين ينكرون وحدة الشعب الجزائرى ويدونون على الورق أن العرب يخالفون القبليين أو سكان مزاب .

أنصار الاتحاد الفيدرالى :

كان الدكتور «أفولوفو» يؤيد الدفاع عن نظام الاتحاد الفيدرالى وكان هذا الدفاع ضد تيار الأفكار التى يؤمن بها عامة الوطنيين الأفريقيين . وكان هذا الدفاع يرتكز قبل كل شىء على الخوف من رؤية مجموعة من المناطق فى نيجيريا تسيطر على المناطق الأخرى فى داخل الدولة الموحدة مثل المنطقة الشمالية التى تشمل غالبية السكان ، فعددهم فيها أكثر من المنطقتين الشرقية والغربية . ففى أثناء المؤتمر الذى عقد عام ١٩٥٨ تنبأ الدكتور أفولوفو بنصر ساحق لحزب مؤتمر شعوب الشمال (الحزب الحاكم فى الشمال) فى الانتخابات الفيدرالية التى كانت ستجرى من أجل الاستقلال فى عام ١٩٦٠ (وهو ما حدث فعلا فيما بعد) . فإن المؤلف قد لاحظ أن مقاعد الشماليين تبلغ ١٧٤ مقعداً من مجموع المقاعد كلها فى البرلمان البالغ مجموعها ٣١٢ مقعداً ، فيكفى أن ينضم إلى الشماليين بعض نواب الجنوب الذين يدورون فى فلك الشمال ليتاح لحزب الاتحاد النيجيرى الاشراف على الحكومة الفيدرالية . ولتجنب مثل هذه الاخطار يقترح أفولوفو تقسيماً جديداً لنيجيريا تشمل عدداً أكبر من المناطق بحيث تطابق المجموعات البشرية فى البلاد بطريقة أكثر واقعية . ويضيف الكاتب فى تأكيده أن كثرة الشعوب والأحياش وتنوعها فى نيجيريا هو خير دفاع عندها ضد الديكتاتورية ، وقد أضاف المؤلف إلى هذه الأسباب العامة حجة أخرى إنسانية هى : أن الزعماء الحاليين للحزب الاتحادى النيجيرى مقتنعون بالنظام الفيدرالى اقتناعا يقرب من القداسة فهم يستوحون منه كل سند رئيسى .

وفى الوقت نفسه كان معظم الزعماء السياسيين فى نيجيريا ومنهم أزيكويه متفقين إلى حد ما على ضرورة إنشاء مناطق جديدة ، كما أن فكرة اتخاذ إجراءات رسمية فى هذا الشأن وردت من قبل ضمن توصيات المؤتمر الدستورى عام ١٩٥٨ . ومع ذلك فإن وجهات النظر بين الأعضاء تختلف تماماً بشأن الوسائل العملية لإعادة بناء الدولة بطريقة ينجم عنها إضرار بمصالح الأحزاب الثلاثة الكبرى التى يواجه بعضها البعض ، وهى : الحزب الوطنى النيجيرى للاتحاد مع شمال الكاميرون

والذى يسيطر على شرق البلاد . والحزب الاتحادى النيجيرى الذى يسيطر على الشمال وحزب العمال والفلاحين فى غرب نيجيريا وكان يتمتع بالأغلبية فى غرب البلاد .

إن عدم ثقة واطمئنان «أفولوفو» من جانب زعماء العشائر فى المنطقة الغربية كان يختلف اختلافاً طفيفاً عن عدم ثقته بأمر الشمال . فهو يقرر فى كتاب حياة الرئيس أفولوفو . مليأتى : حين توليت الحكم فى عام ١٩٥٢ كرئيس للوزارة فى المنطقة الغربية كان علىّ أن أدخل فى اعتبارى أمرين هما : الأمراء المحليون ورؤساء العشائر الذين تتملكهم الغيرة وتشتد بهم الحساسية فيما يتعلق بحقوقهم ، وما كان لهم من مميزات وامتيازات تقليدية ، وبالرغم من الاضطرابات التى حدثت هنا وهناك ضد رئيس عشيرة معين أو ضد ملك محلى معين فإن الشعب مازال يحترم رؤساء العشائر فى حين أن الحقوق والامتيازات التى كان رؤساء العشائر والأمراء يتمتعون بها كانت ضد الديموقراطية وضد آمال الشعب . وكان هذا الأمر هو المشكلة التى يجب أن أجد حلالها ، فقد كنت أجتهد فى أن أكبح جماح نفوذهم وعلىّ أيضا أن أتخذ فى أسرع وقت ممكن جميع الإجراءات التى تقلل من هذه الحقوق الممنوحة لهم ، وأن ألغى امتيازاتهم التى كنت أرى أنها باهظة جداً . كما لزاما علىّ أن أفعل كل ذلك بطريقة تجعلنى أتجاوب فى نفس الوقت مع رغبات الطوائف الأخرى مع ضمان الطمأنينة لرؤساء العشائر والملوك المحليين حتى يقوموا بمهام وظائفهم .

عنف أو لا عنف :

كانت حركات التحرر فى الكومنولث وفى الإمبراطورية الفرنسية مطبوعة بطابعين مختلفين ويكفى للدلالة على ذلك المناقشة التى ثارت فى مؤتمر الشعوب الأفريقية فى أكرا عام ١٩٥٨ بين أنصار عدم استعمال العنف وكلهم من الناطقين باللغة الإنجليزية ومشبعين بمثل ما تشبع به «غاندى» وبين أنصار استعمال العنف الذين ينتمون إلى الشعوب (المستعمرات الفرنسية) منهم «فرانز فانون» مندوب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وفيلكس موميه مندوب اتحاد شعوب الكاميرون .
ويعرض كوامى نيكروما لهذه الناحية فى كتابه الذى يحكى فيه تاريخ حياته وكيف أنه يعتنق آراء غاندى ، يقول فىّ كتابة : إنى كنت أخصص الكثير من الجهود والوقت لدراسة الثوار والثورة والوسائل التى اتبعها هؤلاء الثوار . ومن بين من استحوذ على اهتمامى هم : هانيبال – كرومول –

(١) كانت حكومة المنطقة الشمالية تريد التأجيل والمهدنة حتى يمكنها إعداد الموظفين ولم يكن السيد أحمد وبيللو وزملاؤه يتحدثون عن جعل القيادات أفريقية ، بل كانوا يتحدثون عن جعل الإدارة شمالية .

نابليون- لينين مازيني- غاندى- موسوليني وهتلر. وكنت أجد الكثير من الأشياء والمبادئ التي يجب أن أتمسك بها، وكذا وجدت الكثير من الأفكار المفيدة بالنسبة إليّ والتي أفدت منها في حملتي ضد الاستعمار. ولم أستطع في بادئ الأمر أن أهضم كيف كانت فلسفة غاندى من الممكن أن تكون ناجحة حقاً. فقد كانت تبدو لي ضعيفة لدرجة عقيمة. وليس لها فرص النجاح. وكنت أعتقد في ذلك الحين أن حل مشكلة الاستعمار يكون في الثورة المسلحة. وكنت أتساءل كيف يمكن لثورة أن تنجح دون سلاح وذخيرة. ولكن بعد عدة شهور عكفت فيها على دراسة فلسفة غاندى وسياسته وما أدت إليه من نتائج، فهمت تماماً كيف أن هذه السياسية تضمن تأييد تنظيم سياسي قوى ومتين وأنها حل لمشكلة الاستعمار.

وحين وصل «نهرو» إلى السلطة والحكم أيقنت أن نجاح مثل هذا الرجل يؤكد صحة فلسفة غاندى لأنه برغم ميله، إلى الاشتراكية فهو متمسك بأهداب الفلسفة هذه وأن نهرو سيكون كفئاً وقادراً على تحويل هذه الفلسفة (فلسفة غاندى) إلى إصلاحات ظاهرة ملموسة.

ولقد استلهم «كينيث كاوندا» زعيم وقائد روديسيا الشمالية وتأثر بما اتبعه الوطنيون الهنود من وسائل لذلك فهو يقول: لقد صممت على أن أجمع بين مبدأ غاندى السلبي (عدم العنف) مع مبدأ نيكروما (مبدأ العنف) الإيجابي. ومن الأوفق أن نذكر أن المستوطنين البيض قد هاجموا كينيث كاوندا في هذا الميدان خاصة بعد تصريحه في فبراير سنة ١٩٦١ الذي قال فيه: إذا استمر السير «روى ويلنسكي والحكومة البريطانية في حرمان شعب زامبيا من تحقيق آمالهم المشروعة، فقد يحدث أن تقوم ثورة يشعلها سكان روديسيا الشمالية وستكون ثورة الماوماو وبالنسبة لها كرحلة قام بها أطفال صغار. ويدافع كاوندا عن نفسه في كتابه «سنحرر زامبيا» من أنه أراد بكلامه هذا أنه يريد لفت النظر والتحذير من النتائج الخطيرة التي تحدث إذا استمرت سياسة عدم الاعتراف بحقوق الأفريقيين وعلى النقيض يعدد كاوندا عدد المرات والمناسبات التي نصح فيها السكان الأفريقيين بعدم الالتجاء إلى العنف حتى يمكن للقضية القومية أن تنتصر. ومع ذلك فإنه قبل نيكروما بستين عاماً حذر أحد الرواد الأوائل للحركة الوطنية الغانية وهو «كازلي هايفورد»، حذر السلطات الإنجليزية من أنه ليس من المستبعد أن يقوم كفاح مسلح فقال: من الخطأ الفادح أن يظن من يرقب الأحوال في ساحل الذهب دون تعمق أن الخوف من المدافع البريطانية أو الجنود البريطانيين هو الذي يمنع الاضطرابات في ساحل الذهب.

وفى كينيا كان أحد رفاق كينيتا ويدعى « مبيو كاونانج » يرد على الاتهامات التى وجهها الأوربيون إلى ثورة ماو ماو ، وهى أهم ثورة مسلحة قام بها الأفريقيون بعد الحرب الكبرى . فهو يرد على هذه الاتهامات فى كتابه « شعب كينيا يتحدث مع نفسه » فيقول : إن الهدف من الحديث عن فظائع المأو ماو من جانب الأوروبيين إنما هو تحويل نظر الرأى العام عن عدالة مطلب الأفريقيين بتصفية الاستعمار فى القارة ، وبالتالى كسب الرأى العام لقضية الاستعمار بوصفهم ممثلين للحضارة . ليس يعنينى فى هذا الكتاب أن أتحدث عن الفظائع التى ارتكبها الماو ماو لأن كل عمل فظيع ارتكب من جانبهم إنما كان ردًّا على ما يقرب من عشرين عملا فظيعاً ارتكبه الأوروبيون المستعمرون وجيشهم والشرطة والحرس المحلى . فكان مثلا يضع سبورات كبيرة يدون عليها بالطباشير عدد الأفريقيين الذين أعدموا .

وبعد مرور عدة سنوات . يردد أحد مواطنيه ويسمى « توم مابويا » فى كتابه « ما بعد الحرية » فيقول عن عدم إمكان تطبيق نظريات غاندى فى أفريقيا : إذا استطعنا شن قاعدة عامة فإنه يتضح أن الالتجاء إلى العنف أمر لابد منه فى كل مستعمرة بها أقلية من البيض ، حتى ولو كان هذا خارجاً عن سياسة الحزب القومى الأفريقى .

نهاية خرافة :

فى عام ١٩٥٣ نرى أن « ماغموت دبوب » هو أكثر الطلبة السود تمسكاً بمبادئه حتى أن مجلة « الوجود الأفريقى » جمعت مقالات للطلاب لتفرد لهم عدداً خاصًّا سمته « الطلبة السود يتكلمون » فاختتم دبوب هذا مقاله فى هذا العدد الخاص قائلا : على كل أفريق أن يقتنع بشرعية استقلالنا وعليه أن يعلم أن هذا الاستقلال حتم وضرورى فى هذا الجيل الذى نعيش فيه » .

لقد سارت الأحداث بأسرع ماكان يتخيله هذا الكاتب ويتمناه . فقد جعل استقلال غانا فى سنة ١٩٥٧ الأحداث تترى فى سرعة ، حتى أنه فى أقل من عشر سنوات ، أى أقل من حياة جيل من الناس من نشر هذا المقال (مقال دبوب) صارت أفريقيا كلها مستقلة ماعدا الحصنين البرتغاليين (أنجولا وموزامبيق) واتحاد روديسيا ونياسالاند واتحاد جنوب أفريقيا (أى أفريقية الجنوبية عامة) .

ويقتبس الكاتب « سيتهولية » من شكسبير مقارنته المثيرة ليشرح بها كيف أن الخرافة القديمة وهى (تفوق الأوروبى) قد انهارت من أساسها . فنراه يكتب فى ختام كتابه يقول : إن الأفريق

الذى أصبح الآن واعياً للسياسة يذكرنا بكاليبان الذى كان فى أول الأمر قد اعتبر كل من هبط على الجزيرة من الأوروبيين أنهم آلهة فأقسم لهم يمين الطاعة والولاء . ثم قال حين عرفهم جيداً « كم كنت مغفلا لدرجة قصوى حين اتخذت من هذا السكير إلهاً وعبدت هذا المجنون الذى يثير الملل » .

ولم يشر الكاتب الروديسى إلى كتاب « دراسة نفسية فى الاستعمار » للمؤلف و . مانونى حيث نجد فيه دراسة عن الوضع الاستعمارى خلال رواية العاصفة وشخصياتها .[1]

(١) إن كتاب و . مانونى الذى نشر سنة ١٩٥٠ قد ترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٥٦ بعنوان « بروسبرو وكاليبان » .

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب السادس

حلف الاستعمار

« إننا نفضل الفقر فى ظل الحرية على الغنى فى ظل العبودية » هذا ما قاله : سيكوتورى فى خطاب ترحيبه بالجنرال ديجول فى ١٩٥٨/٨/٢٥ فى كوناكرى ، وذلك قبل شهر من الاستفتاء (استفتاء ٥٨/٩/٢٨) الذى اختارت فيه غينيا وحدها الاستقلال من بين جميع الأراضى الفرنسية فى أفريقيا .

إن قولة رئيس الجمهورية (جمهورية غينيا) هذه تلخص موقف الوطنيين الأفريقيين تجاه الحجة التى يتذرع بها المستعمرون ويوجهونها لهم فى معظم الأحيان وهى ضرورة المعونة الاقتصادية والمالية التى كانت تمنحها الدول الكبرى لمستعمراتها تحت أشكال مختلفة . (ابتداء من الحماية الجمركية التى يقدمها نظام التفضيل الإمبراطورى للكومنولث حتى المعونة المباشرة بواسطة استثمارات واردة من القطاع العام (باسم صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية) .

وفى الواقع اعتبر عدد كبير من الوطنيين الأفريقيين أن هذه المعونة ما هى إلا ضرب من ضروب الاستعباد وأنها وسيلة جديدة للاستعمار .

ولهذا فقد كرّس واضعو أسس القومية الأفريقية عنايتهم فى دراسة العلاقات الاقتصادية بين الدولة الأوروبية والمستعمرات .

فبالنسبة لكوامى نيكروما فإن المشكلة الأساسية فى رأيه هى أن التحرر السياسى ما هو إلا وسيلة ، والغاية هى التحرر من الاستغلال الاقتصادى . فهو يقولها صراحة فى مستهل كتابه بل وفى أولى صفحات هذا الكتيب الصغير بعنوان : « نحو حرية مستعمرة » فيقول إن بقاء شعوب مستعبدة تحت سيطرة الإمبريالية يستلزم صراعاً عنيفاً ومستمرًّا للتخلص من نير الاستعمار والاستغلال . إن هدف الحكومات الاستعمارية بأجمعها فى أفريقيا وفى غيرها من الأماكن إنما هو الصراع من أجل المواد الخام ، وأكثر من هذا فإن المستعمرات أصبحت كالمص والدول المستعمرة

(صاحبة النفوذ) ملزمة لاستقبال هذه المنتجات التى يصنعها أصحاب المصانع والرأسماليون فى كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا وجميع الدول القوية المستعمرة التى تلجأ للدول النامية لها لتغذية مصانعها ، إن ذلك يمكن تلخصه فى كلمة واحدة : هى الاستعمار . إن الأساس الذى يرتكز عليه استعمار الأراضى هو الأساس الاقتصادى . ولهذا كان الاستقلال السياسى هو الخطوة الأولى والأساسية لتحرير التحرر الاقتصادى .

« من الاقتصاد الذى يعتمد على السكر إلى الحلف الاستعمارى »

وفقاً لما قاله نيكروما من أن الاستعمار فى جوهره يرتكز على أساس اقتصادى . وتلك نظرية مستوحاة من كتاب « لينين » بعنوان : « الاستعمار هو قمة أهداف الرأسمالية » فقد أصدر نيكروما كتيبه نحو حرية مستعمرة « غداة الحرب الكبرى الثانية وبعد مؤتمر مانشستر عام ١٩٤٥ بقليل من الزمن . فهو كتيب صغير يحوى ٣٦ صفحة فقط ، وقد عنى بشرح ما حوى من أفكار جميع الاقتصاديين الأفريقيين ، فلم يكن وقفاً على المتشيعين لماركس فحسب .

ولكى نفهم حقيقة هذه السيطرة الاقتصادية كما نفهم أسبابها العميقة . فقد عمد المؤرخون الأفريقيون إلى تقصى المراحل الأولى تفصيلا لطريقة التوسع الأوروبى خارج حدود بلاده . وليستوعبوا تاريخ هذه الطريقة المعروفة تحت اسم : حلف الاستعمار .

فى هذا المضمار يخصص « عبدو اللاى بى » مجلداً ضخماً يشرح إحدى المراحل الأولى لهذا التطور وذلك بسرد تاريخ « شركة السنغال » حيث يدرس المؤلف نمو الاقتصاد الذى يرتكز على السكر فى جزر الأنتيل وما تفرع منه من ظواهر أخرى كجلب الرقيق من أفريقيا إلى هذه الجزر . فيتساءل « عبد اللاى بى » ، ويقول : لماذا ؟ ويجيب قائلا : لأن الرأسمالية الحديثة لا تتفاهم بغير السكر . لأنه منذ زراعة قصب السكر وضمه بواسطة الآلة الصناعية حتى نقل هذه السلعة بالبحر فإن رؤوس الأموال الكبيرة تلعب دورها وإن أرباحاً خرافية تتراكم وتتكدس فى أيدى الرأسماليين . وأما اليد العاملة فهم العبيد . والعبيد أنفسهم كانوا مصدراً لأرباح طائلة ولأنهم كانوا سلعة ومصدر تجارة واسعة لتداول رأس مال كبير يربط بين أسواق الرقيق فى أفريقيا ومزارع الدنيا الجديدة . مثل ما كانت تحاول تحقيقه هولاندا فى الربع الأول من القرن السابع عشر حين انتزعت من البرتغال شمال البرازيل حيث يزرع القصب واعتبار أنجولا مستودعاً لتوريد الدقيق .

وهكذا اعتبر المؤرخ والاقتصادى السنغالى هاتين الظاهرتين : ظاهرة الاقتصاد الذى دعامته السكر وظاهره تجارة الرقيق هما أهم مصادر الدخل التى سببت تكدس رؤوس الأموال (بالنسبة

للرأسماليين) كما سببت أيضاً قيام الثورة الصناعية . ويعرّف « لى » الخصائص الرئيسية لهذا الاقتصاد فيما يأتى : -

* التركيز على زراعة واحدة . فزراعة قصب السكر سارعت فى إلغاء الزراعات الصناعية الأخرى مثل الدخان وقللت من أهمية الزراعات الحيوية التى يعيش عليها الإنسان حتى إن المجاعة التى تفشت لدرجة اضطررنا إلى استيراد الجاموس من أيرلندا ليأكله العبيد .

* الملكية الكبيرة : اختفت المزارع الصغيرة التى تملكها العائلات والتى يمتلكها المستعمرون الفقراء . وحلت محلها المزارع الكبيرة خاصة فإن المزارع الصغيرة كانت نادرة وقليلة .

* استغلال الطبقة العاملة : إن وجود يد عاملة رخيصة جدًّا وهم العبيد لا يشجع على هجرة الطبقات الفقيرة من البيض الأوروبيين .

* الاحتكار – سيبقى دائماً لشركة السنغال حق الاحتكار الكامل أو الجزئى لتجارة الرقيق منصوص عليه فى هذا الاتفاق .

ولهذا فإن عبد اللاى لى يسرد بالتفصيل تاريخ نشاط شركة السنغال ومشاريعها فقد أقامت فى السنغال مستعمرة منذ القرن الثامن عشر ، هذه المستعمرة كانت معدة ليسكنها البيض ، ولكن هذا المشروع فشل أخيراً وكان نتيجة لفشله وتصفيته أن فتح الباب لعهد جديد من الاقتصاد الحر وليس من الاقتصاد الموجه . وكانت المنافسة الحرة إحدى خصائصه وهو عهد النخاسة .

بهذا يمكن ترجمة تاريخ شركة السنغال فى الحياة الفرنسية » بهذا التعبير اختتم المؤلف حديثه معدداً لحظة من لحظات نمو الرأسمالية فى إطار المذهب الاقتصادى المعدنى (المذهب الذى يعتمد على التجارة) فى القرن السابع عشر ، وهى فترة من فترات التوسع الأوربى . إن علاقات تاريخية مستقلة بين حقائق الماضى وحقائق الحاضر إلى جانب الاتفاق والخلاف فى وجهات النظر التى لم ندونها . وعلى الأحياء منا أن يفيدوا منها بقدر الإمكان .

إنا نجد تقارباً بين أفكار « عبد اللا لى » والكاتب النيجيرى « ك . أنفوكا ديك » فى كتابه « التجارة والسياسة فى دلتا نهر النيجر » فقد كتب ديك يقول : كان رجال الاقتصاد فى القرن الثامن عشر يرون أن ثروة جزر الأنتيل كانت دعامة من أهم دعائم الإمبراطورية البريطانية فى ذلك الوقت ، وكانت غالبية هذه الثروة من نتاج عمل الأفريقيين . والمعروف أن التجارة المثلثة (أى التجارة بين بريطانيا وأفريقيا الغربية وجزر الأنتيل) كانت بمثابة عرق معدنى من العروق المعدنية التى منها خرج رأس المال الذى مول الثورة الصناعية .

ولكن . . كان من نتائج هذه الثورة الصناعية أن قامت بدورها فى توسع أوروبا خارج حدودها . إذ كانت هذه الثورة حسب رأى معظم الكتاب الوطنيين فى الدول النامية سبباً من الأسباب الرئيسية للغزوات الاستعمارية فى القرن التاسع عشر .

فيقول الزعيم الجزائرى «عباس فرحات» فى كتابه «ليلة الاستعمار» : إن جريمة الاستعمار قبل كل شىء جريمة الطبقات التى تمتلك . لقد كان بالطبع هناك غزوات قام بها الأسبان والمبشرون الدينيون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ولكن من المؤكد أن المغامرة الإستعمارية سابقة على عهد ارتقاء البورجوازية . ولكن هذه المغامرة لم تتخذ شكل الاستغلال العنيف إلا مع التركيز الرأسمالى . كما أن التوسع الأوروبى فى آسيا وأفريقيا مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع النمو الصناعى وبعصر استخدام الآلة . فإن أوروبا المستعمرة قد هدمت وقتلت ونفت الكثيرين على أوسع نطاق ولمدة قرون طويلة وعديدة لا لشىء إلا لضمان ما تجنيه من فائدة مادية .

كما يقرر المؤرخ الهندى «بانيكار» فى كتابه «آسيا والسيطرة الغربية» فيقول : بدأ اهتمام أوروبا بضمان احتكار استيراد المنسوجات والشاى وسلع أخرى . وأخيراً بعد الثورة الصناعية أحست إنجلترا بحاجتها لإيجاد أسواق لها لبيع منتجاتها المصنوعة ثم لاستثمار رؤوس أموالها . ويتفق جميع المثقفين مع هذا التحليل ومنهم «ماما دوديا» الذى بعد أن صوّر وتحدث عن النتائج الإقتصادية والبشرية (من حيث عدد السكان) لتجارة الرقيق فى أفريقيا فإنه يعرف مواضع القوة فى هيكل الرأسمالية للقرن الماضى فيقول : لا يقف دور أوروبا السلبى عند هذا الحد لأن هدم أسس الإقتصاد الإفريقى سيستمر فى تزايد دائم بالرغم من إلغاء الرق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، نظراً لشدة الدفع الإستعمارى الإمبريالى لدول الغرب وهو نتيجة للثورة الصناعية الكبرى .

استغلال أفريقيا

«إن الصورة قاسية» ، هذا من جانب التاريخ . مع أنها لن تكون أقل قسوة بالنسبة للوقت الحاضر (الفترة المعاصرة) . فإن الملامح الأساسية للاقتصاد الأفريقى الناجمة عن حلف الإستعمار والتى سيصل إليها رجال الاقتصاد الأفريقيون ستكون شبيهة مع الصفات والملامح التى وصفها الكاتب «لى» بأنها ترتكز على السكر فى جزر الإنتيل . ومن ناحية أخرى كان المؤلف يرمى إلى الإستفادة من الدروس الماضية ، وذلك فى إبرازها بطريقة واضحة . وفى الحقيقة أن الغرابة التى

تربط بين هذين الأمرين واضحة جداً ، حتى أننا نستطيع أن نقيم رسماً بيانياً لما بينهما من تطابق .

• إن الأولوية التي تخصصها الآن أفريقيا لبعض الزراعات الصناعية تتفق ونظام التركيز على زراعة واحدة مثل زراعة قصب السكر في جزء الأنتيل . وتخصيص هذه الزراعات يأتي على حساب الزراعات الحيوية واللازمة للمعيشة من غذاء وكساء .

• يطابق نظام الملكية الكبيرة تركيز رأس المال الذي هو في أيدي بعض المؤسسات وأصحاب المشاريع الكبرى ذوي النفوذ الواسع .

• يطابق نظام الاحتكار ترسانة حماية الجمارك ونظام الضرائب ذات الامتيازات الكبرى .

• يطابق استغلال العبيد استغلال الفلاح والعامل الأفريقي الذين يعطون أجوراً مخفضة تخفيضاً غير طبيعي .

إن أحد الحلول التي قدمتها وفود غرب أفريقيا إلى مؤتمر الشعوب الأفريقية الذي انعقد في مانشستر سنة ١٩٥٤ والذي قام فيه نيكروما بدور هام ، يبرز إحدى النقاط التالية : حين يصبح بلد من البلدان مضطراً برغمه على أن يكون مصيره متعلقاً بمحصول زراعة معينة (كالكاكاو مثلاً هنا) ويصرف هذا المحصول في سوق احتكارية من ناحية أخرى ويكون حتماً على هذه البلاد ألا تزرع إلا من أجل التصدير فقط ، بينما مزارعوها وعمالها واقعون تحت سيطرة الرأسمالية وشراكها من الناحية المالية ، فمن البديهي أن ينص هذا الحل على أن حكومة هذا البلد غير جديرة بالقيام بمسئولياتها الإقتصادية .

ويلاحظ «ماما دوديا» من ناحية ظاهرة لها مغزاها من مظاهر الاقتصاد الأفريقي في عهد الاستعمار ، وهي أن رؤوس الأموال التي كانت تتداول في عهد الاقتصاد غير الموجه (الحر) كانت كلها رؤوس أموال فردية ، أي خاصة . وكان من الطبيعي أن تستثمر في القطاعات التي يكون فيها الكسب مضموناً من قبل لأنها تخضع للاقتصاد المسيطر والمهيمن ، ولأنه يتمشى مع مصالح الأفراد من حملة الأسهم ، وهم طبعاً من غير الأفريقيين . . . كما نلاحظ في الزراعة مثلاً إهمال الزراعات الحيوية التي يعيش منها الإنسان والعناية التامة بالزراعات الصناعية وأهمها البن والقطن والفول السوداني والخروع ، وإهمال جني المحاصيل في المزارع الصغيرة كلية حتى يعمل الكل في استغلال الغابات على أوسع نطاق ، وبهذا حل اقتصاد رأس المال محل اقتصاد الفلاح الذي منه يعيش . وحتى هذا الاقتصاد الرأسمالي لم يجد من الحكمة حتى إدماج أفريقيا وإدخالها ضمن العالم الحديث المتمدين ، بل اختار له أن يظل اقتصاداً تجارياً لا يعنى إلا بتكديس رأس المال وأهمية الأرباح .

ويوضح «ديا» بعد ذلك الأخطار الناجمة عن هذا الاتجاه من التركيز على زراعة صناعية واحدة ، فهو اقتصاد لا تنوع فيه فضلاً عن إنهاك التربة وفناء صلاحيتها ومن ثم خطر آخر هو سوء تغذية الفلاح الأفريقي ، ويصر «لي» من جانبه بعد أن استعرض نفس هذه الظواهر على إظهار «الدائرة الفاسدة» التي يلفها الإضطرار حول الفلاح الأفريقي . فهو مضطر لدفع الضريبة نقداً ، وإذاً لا محيص عن زراعة محصول تجارى لا نفع له منه ، ولكن بيعه هو الوسيلة الوحيدة التي يحصل بها على المال المطلوب .

ويظهر في جلاء ملموس كل من «ماعيموت دبوب» و«تيفود جريه» أهمية الأرباح التي تحققها المؤسسات الكبرى ، ويؤكدان على أن هذه الأرباح إنما هي نتيجة لعدد معين من المزايا التي لا تتخذ شكل احتكار ممنوح لشركة زراعية واحدة كما كان يعطى في الماضي ، ولكنها تضمن مع ذلك للمنتفعين بها حمايتهم من المنافسة الأجنبية وتكون حاسمة في أغلب الأحيان ، ويوضح «تيفود جريه» أن ما تدفعه الشركات الكبرى من ضرائب تافهة جداً إذا قيست بالضرائب التي يدفعها الفلاح الأفريقي .

ويضرب هذا المؤلف مثلاً لذلك من ميزانية السودان الفرنسي عام ١٩٥٣ مبيناً ذلك بالأرقام من واقع الإحصاء الرسمي : -

(١) إن الضرائب التي تقدر بالطريق المباشر على سكان البلاد الأصليين (وهي الضريبة الفردية) إنما هي ضريبة تقدر جزافاً وحيثما اتفق (فهي ضرائب على الأشخاص وضرائب على الماشية وضرائب على السلاح) ومقدارها ٥٥ ٪ من إيرادات الميزانية العامة

(٢) مساهمة المستعمرين وشركاتهم في الضرائب تعد ضئيلة جداً بالقياس إلى قدرتهم على دفع الضرائب . والأرباح الصناعية والتجارية التي تظهر وكأنها مرتفعة جداً لا تشكل في الواقع إلا ٣,٤ ٪ من إيرادات الميزانية .

وإنما الحماية الهامة هي بلا شك الحماية الممنوحة لقوانين الجمارك التي تبعد المنافسة الأجنبية . ولا يدلل «تيفوجريه» ببرهان أقوى من نص مقال نشر في مجلة «الحياة الفرنسية» العدد ١٦ / ٤ / ١٩٥٤ والذي ورد فيه النص الآتي :

إن رعايا ممتلكات ما وراء البحار (المستعمرات) مضطرون إلى استيراد منتجات بثمن مرتفع جداً لا تساويه في الحقيقة هذه المنتجات . في حين أن المنتجات ذات الثمن الأرخص يستبعدها المورد الأجنبي عنهم . ولهذا يزيد ثمن القمح المستورد من فرنسا ٨٠ ٪ بالنسبة للقمح الذي يستورد

من غير فرنسا وكذا السكر يزيد ١٠٠ ٪ وكذا ثمن الأقمشة القطنية المصبوغة ٣٥ ٪ .

ويكشف نيكروما فضائح نظام التفضيل الإمبراطورى الإنجليزى فيقول : يشترى البضائع الإنجليزية هذا الشعار ويستعمل دائماً حتى تشترى هذه البضائع الإنجليزية بأثمان مرتفعة ، وفى الوقت نفسه تطبق على المنتجات الأوروبية الأخرى تسعيرات أكثر إرتفاعاً من ضرائب أكثر ارتفاعاً فبذلك تقل حركة استيراد هذه البضائع . إن التعريفة الجمركية إنما وضعت لحماية الإقتصاد الوطنى وهذه قاعدة عامة . . ولكن هذه القاعدة لا تطبق فى المستعمرات لأن هذه التعريفة الجمركية إنما وضعت لحماية التاج التجارة البريطانية فقط .

ويبدى «عبد اللاى لى» نفس الأفكار والملاحظات فى كتابه «الجموع الأفريقية والحالات الإنسانية الخالية» فيقول : إن السلع المستوردة تباع بأثمان احتكارية ترتفع وتتضخم بفعل الضرائب المفروضة على قدر المبيعات . وفرض الضرائب الجمركية هذا إنما جعل لحماية بضائع الدولة المستعمرة من منافسة البضائع الأجنبية الأخرى كما تعود فائدته على ميزانيات الحكومات داخل المستعمرات .

إن اتساع فوائد أرباح المشاريع التى تملكها الدول المستعمرة فى أفريقيا نتيجة للدخل الغنى الذى يضمنه للدول الصناعية ، تفوقها فى الإنتاج ونتيجة لتكامل المناطق التى يسود فيها إنتاج تقليدى بشتى صوره ، وذلك فى نطاق علاقة الإنتاج الرأسمالى هذا رأى عبد اللاى لى . بينما يتحدث الكتاب الناطقون باللغة الفرنسية عن وسائل أخرى من وسائل الحماية التى تتيح لمشاريع الدولة المستعمرة تحقيق أرباح طائلة . ولهذا يشهر نيكروما بالاحتكار الذى تتمتع به شركة صناعية «شركة صناعة الشيكولاته» فى إنجلترا بفضل هيئة حكومية (هى مركز الإشراف على الكاكاو) .

أما كاتب كتاب «نحو حرية مستعمرة» فإنه لا يعنى إلا بشرح قاعدة عامة فإنه يعتبر أن الرأسمالية عند دخولها للمستعمرات لم تتبع الطريق الطبيعى فى سيرها والذى سارت فيه الدول الغربية من قبل . فالإشراف الإحتكارى على جميع موارد المستعمرات أثبت فساد نظام الرأسمالية .

وإذاً ما هى حال العمال والفلاحين الأفريقيين وسط هذا المفهوم . فى رأى نيكروما «أن العمال والفلاحين قد سبقوا إلى حال ليس بعدها إذلال» ثم يسترسل قائلاً : منذ وصول الرأسماليين إلى المستعمرات أجبر السكان على العمل كعمال وعبيد فلم يستطيعوا تنظيم أنفسهم ، بل كانوا عاجزين عن تنظيم أنفسهم تنظيماً حقيقياً بسبب تدخل الإدارة وتدخل المهيمنين على هذه المشاريع الرأسمالية . وتتلخص فلسفة الرأسمالية فى المستعمرات فى أنه يجب أن يعمل الوطنيون تحت أى إدارة أجنبية وليس لهم أن يشكوا ذلك لأن الوطنيين كما يزعم الأوروبيون غير قادرين على تنمية موارد

بلادهم . وإذاً فهم (الأوروبيون) يعلمون الوطنيين كيف يعملون ويكيفونهم حتى يستعملوا المنتجات المصنوعة فى الدولة المستعمرة حتى يصبحوا عملاء طيبين . وحتى الأجر الهزيل الذى كانت تعطيه الرأسمالية للعمال والفلاحين كان يرد إليها عن طريق شراء هؤلاء للبضاعة الوضيعة التى تبيعها الرأسمالية لهم . لأن الرأسمالية كانت لا تبيع سوى هذه البضائع الوضيعة التافهة . وبهذه الطريقة العجيبة كانت هذه العملة الضئيلة التى يدفعها المستغل للوطنى تعود إلى جيب المستغل مرة أخرى .

ويخصص «البير تيفود جيريه» صفحات عديدة يكشف فيها عن الحالة المذرية والمحزنة التى يعيشها الأفريقى الذى يتقاضى الأجر من الأوروبى ، كما يكشف عن فضائع الأوروبى مع الأفريقى فيقول : إن الأجور التى يتقاضاها الوطنيون غير كافية بتاتاً وتعتبر سبباً من الأسباب التى تجعل المؤسسات والشركات التى تعمل فى المستعمرات تربح أرباحاً طائلة وفريدة فى نوعها . وينوه كاتب «أفريقيا الثائرة» قائلاً : إن التفرقة العنصرية فى المستعمرات تظهر أحسن وأفسح ظهوراً لها فى تفرقة الأجور التى يتقاضاها الأوروبى والأفريقى . ويقلق الكاتب الداهومى أشد القلق من ظاهرة ازدياد شرب الخمر وانتشارها فى المستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار . فيسجل أنه فى عام ١٩٥٤ تم اتفاق بين وزارة فرنسا لشئون ما وراء البحار وبين بعض النواب البرلمانيين الأفريقيين ، على أن تقدم الحكومة مكافآت مالية وجوائز لتصدير النبيذ بأنواعه المختلفة إلى المستعمرات مدعين عادة أن هذا العمل عمل صحى له فائدته – وحتى يبرهنوا على هذا فإنهم يقولون إنه من مهمة أوروبا الحضارية . وبدون أن ننفى وجود الناحية الصحية فى هذا العمل فإننا نتفق على أنها حجة غير كافية للإقناع ويجعلها موضع شك وشبهة للمفهوم المادى عند الإنسان المستغر ، ونشر الشرب (شرب الخمر) فى القارة السوداء .

ونرى «مامادو جلوجو» فى قصة حياته التى كتبها بعنوان : «الذى نجا من إدمان الخمر» نراه يدلى برأى قاطع تماماً كرأى الكاتب السابق فهو يقول فى خاتمة كتابه : يجب على أفريقيا أن تقهر آفة شرب الخمر فهى الآفة الموروثة عن الاستعمار» .

الأرض وباطن الأرض .

أولى «مامادو دياه» الأسباب التى أدت إلى هجرة الفلاحين إلى المدن اهتماماً كبيراً وتصدى لشرحها فقال : إن الأسباب الأساسية لهجرة الفلاحين الأفريقيين إلى المدن منها ظروف عمل هؤلاء الفلاحين فى المدن . وإن لم تكن البطالة من «البروليتاريا» بدرجة خطيرة ، كما أن أخطر سبب لهذه الهجرة هو نزع ملكية الأراضى التى يمتلكها سكان البلاد الوطنيون . ويضاف إلى ذلك سبب آخر

هو كسب بعض المال لتسديد الضرائب ، ومن ثم سبب آخر هو جاذبية المدينة حيث تتركز الأعمال ويعرض «ديا» مثلاً لذلك من كينيا حيث تتم الهجرة من الريف إلى المدينة . وكان السبب الرئيسي فى ذلك هو انتزاع ملكية الأراضى التى حدثت بالجملة ، الأمر الذى سيؤدى حتماً إلى نهاية سيئة . فيقول «ديا» : لقد سبب نزع ملكية أراضى الوطنيين بالجملة اضطرابات دموية . فإن احتلال ثلاثة آلاف مستعمر بريطانى للأراضى المرتفعة البيضاء فى كينيا وحرمان أربعة ملايين من الوطنيين من امتلاكهم لهذه الأراضى كان أساساً لحركة شعبية ظلت راكدة ثلاثين عاماً ثم انتهت بثورة عارمة هى ثورة الماوماو .

ولم يكن النقاد أقل لذعاً فى نقدهم من الكتاب الناطقين باللغة الإنجليزية . فنيكروما يخصص صفحتين كاملتين فى كتابه الذى سبق ذكره حيث يقول : إنه من المضحك حقاً أن يتحدث عن أراض فى المستعمرات يملكها مواطنون من المستعبدين حين تحدد ملكيتهم للجزء السطحى منها ، لأنه يكمن فى باطن هذه الأرض ثروات معدنية ليس من حقهم امتلاكها . ويبين المؤلف فى معرض الكلام عن الخديعة والتى مؤداها تخصيص مناطق معينة لنمو الغابات بينما الأمر يتعلق فى الواقع بأراض تخفى فى جوفها موارد معدنية . كما يورد الكاتب ملاحظة أخرى وهى أن الإدارة البريطانية تفرض على الأفريقيين أن يثبتوا حقهم فى الملكية فى حالة نزع ملكية هذه الأراضى منهم . ولهذا كان الوطنيون يتحملون ظلماً كبيراً نتيجة أنه لم يكن موجوداً سجل لهذه الأملاك قبل وصول الأوروبيين . ويضرب نيكروما مثلاً لذلك القانون الذى صدر فى فبراير سنة ١٩٤٤ فى نيجيريا ، وهذا القانون قدمه حاكم البلاد بالرغم من معارضة الجمعية الوطنية المحلية له . وهذا القانون ينص على إعطاء الحكومة الحق فى تملك جميع المواد المعدنية التى تكتشف فى بطن الأراضى التى يمتلكها الأفريقيون .

وطبيعى أن يعالج الوطنيون الأفريقيون فى كينيا مشكلة الأراضى بطريقة مستفيضة . فإلى جانب «كينياتا» الذى يتناولها من وجهة نظرة الشخصى وهى المتعلقة بالدراسة الخاصة بعلم نشاط الشعوب وذلك فى كتابه «فى مواجهة جبل كينيا» نجد تصويراً آخر للكاتب «بارميناس جيتد زوموكارى» فهو يتحدث عنها فى كتابه بعنوان : «أفريقى يتحدث إلى بنى جنسه» فهو يندد بالنظام الذى وضعته بريطانيا كله ، ويذكر تخفيض أجور الأفريقيين الذى كان ينتج عن عام ١٩٢١ فى مفهوم المجتمعات وكذا تقييد انتقال الأفريقيين داخل البلاد وذلك بإدخال نظام التصاريح ، وهى إجراءات أثارت الاضطرابات عام ١٩٢٢ الذى أشرف عليه زعيم منظمة شرق أفريقيا «هاوى ثوكو» (فحين قبض

عليه ثار المتظاهرون وقتل فى هذه المظاهرات ٢٥ شخصاً) . كما بين المؤلف أن قرار «تعويض الملاك الوطنيين» الصادر فى عام ١٩٣٠ والذى كان يحبذ انتزاع ملكية أراضى الأفريقيين لصالح المستعمر بدون دفع تعويض ، وكيف أن هذا القرار لم يحترم عام ١٩٣٢ ، وقد حدث ذلك بسبب امتياز استغلال مناجم الذهب فى «كاكاميجا» الذى منح لشركة خاصة أوروبية ولبعض شركات أخرى. وقد انتقدت أيضاً مشكلة نزع الأوروبيين لملكية الأراضى واختيرت هذه المشكلة بوجه خاص فى اتحاد جنوب أفريقيا منذ زمن طويل . وأول بادرة من بوادر الاحتجاج الأفريقى بالنسبة لهذه المشكلة النص الذى كتبه الكاتب القصصى «سول . ت . بلاتج» فقد كلف هذا الكاتب من قبل الحزب الوطنى الكبير - حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى بعمل تحقيق عن النتائج المحزنة المخزية التى نجمت عن قانون الأراضى الصادر فى سنة ١٩١٣ والذى أرغم العمال السود على هجر الأراضى التى كانوا يزرعونها حتى صدور القانون ليحل محلهم الأوروبيون . وقد كشف «بلانج» عن فضائح هذه الهجرة الإجبارية فى كتابه بأسلوب مفعم بالمرارة نشر عام ١٩١٦ تحت عنوان «حياة المواطن فى جنوب أفريقيا» .

من صندوق الاستثمار والتنمية الاقتصادية
إلى اقتصاد المنحة (الهبة)

فى غداة الحرب العالمية الثانية قررت الدول الاستعمارية الكبرى اتباع سياسة أكثر نشاطاً لتنمية أراضيها فيما وراء البحار (اقتصادياً - واجتماعياً) فأعدت التخطيطات وأنشئت معاهدة لزيادة حجم الاستثمار ولإنشاء صناعات جديدة وزيدت المنح ، وتركز على الخدمات الطبية كل هذا فى المستعمرات الفرنسية حيث أنشئ للمرة الأولى صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية . وأما فى الممتلكات البريطانية فقد أنشئ ما يسمى «تطوير المستعمرات والقوانين الصالحة لها» وقد أقيمت أنظمة مماثلة فى المستعمرات البلجيكية والبرتغالية .

وليس هناك أدنى شك فى أنه كان فى سريرة واضعى هذه السياسة الجديدة أن الأمر يتعلق بإصلاح بعض أخطاء الماضى وما يكون قد أغفله ثم تقديم معونة سخية الغرض منها - قبل كل شىء - الارتقاء بمستوى الإنسان المستعمر . وأن شروح السياسيين فيما مضى والتى كانت تحلل وتدعو

باستمرار بصلاحية «المذاهب الإستعمارية» كمبدأ المعاملة بالمثل والتشبه بالأوروبى فى مستعمرات فرنسا ومبدأ «الحكم غير المباشر» فى مستعمرات إنجلترا . ومبدأ خلط الحضارتين بالنسبة لمستعمرات البرتغال ومبدأ التفرقة العنصرية بالنسبة لاتحاد جنوب أفريقيا — كل هذه المبادىء قد أخلت مكانها بطريقة غير محسوسة إلى دراسة رجال الاقتصاد الذين يقارنون فيها حجم ووسائل الاستثمار العام للدول المستعمرة فيما وراء البحار . . . فكيف إذاً أستقبل المثقفون الأفريقيون هذه المعونة الاقتصادية . ؟ . .

مهما يكن عدد الزعماء السياسيين الأفريقيين الذين قبلوا مجرد الشروع لإيجاد هذا الحل لأنهم كانوا يطالبون به من قبل . . فإن الإنتقادات التى وجهت إليه كانت أكثر وأكثر خاصة بين رجال الاقتصاد الأفريقيين .

فمن قبل كان نيكروما فى كتابه «نحو حرية مستعمرة» ينبه مواطنيه ويحذرهم من السياسة الجديدة . . سياسة المعونة الإقتصادية المقدمة إلى المستعمرات . فيقول فى كتابه هذا : —

لقد علمنا خبر إنشاء صندوق للتنمية الإجتماعية فى المستعمرات يقدم مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات الأسترلينية على شكل هبات . ومع ذلك إذا عملنا عملية حسابية بسيطة لتبين لنا الآتى : إذا أدخلنا فى اعتبارنا عدد سكان مستعمرات الإمبراطورية لخص كل فرد من هذه المعونة ١٨ بنساً فى العام وأن الفوائد المنتظرة من صندوق تنمية المستعمرات تكون عديمة الفائدة أو هى وهمية . ذلك لأن هذا المبلغ (١٢٠ مليون جنيه استرلينى) غير مودع فى بنك من بنوك الإمبراطورية البريطانية حتى يمكن لكل دولة مستعمرة الالتجاء لهذا البنك للحصول على المال الذى هى فى حاجة إليه لتنميتها اجتماعياً . ولتبسيط الموضوع أكثر أعطى مثلاً : نفرض أن نيجيريا فى حاجة إلى أربعين مليوناً من الجنيهات لمشاريعها فتلجأ الحكومة البريطانية فى نيجيريا إلى باركليز بنك الذى يقدم الأربعين مليون جنيه للشعب النيجيرى مقابل فائدة قدرها ٦ ٪ ، ففى نهاية الأمر يجد الشعب النيجيرى نفسه مديناً باستمرار للهيئات التى كان الهدف منها معونته» .

كما أن دراسات الإقتصاديين الأفريقيين وتحليلاتهم لنشاط صندوق الإستثمار هذا كانت أكثر اختصاراً وأكثر نقداً له . فمن رأى «عبد اللاى لى» أن صندوق الإستثمار والتنمية هذا لم يغير من الوضع شيئاً بل إن استغلال المستعمر باق كما هو ، ويصر هذا الكاتب على رأيه فى كتابه «الكتل البشرية» فيقول : بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٩ وإبان فترة الثورات السياسية الخاصة بالمستعمرات (والتى سنرجع للحديث عنها) فإن تحويل اقتصاد الحرب تحت وقع عصا حكومة فيشى ثم تحت

ضغط عصا ديجول إلى اقتصاد سلم (الأقتصاد الطبيعى الإمبريالى) قد تم فى يسر وسهولة وبدون أى عائق أو أى توقف مفاجىء - وهكذا استمر تصريف كمية العمل التى يؤديها العامل الأفريق والتى تفرضها عليه الشركات الجديدة صاحبة الإمتياز فى أفريقيا وأقوى هذه الشركات احتكاراً هى شركة «نيليفر» الإحتكارية وهى شركة إنجليزية أمريكية الآن وقد كانت فيما مضى شركة إنجليزية هولندية . كما ظهرت بعض المشاريع البسيطة قدمها بعض البرلمانيين الذين يريدون استثمار أموالهم فى أفريقيا ، وهذه الأموال عبارة عن أرباح حصلوا عليها من بعض المشاريع الكبيرة . ونشير بالكاد لحادث حديث ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بتصريف كمية العمل التى يقدمها العامل الأفريقى نظير أجر يتناسب مع إنتاجه وهو استثمار رأس مال أفريقى صغير .

ولكى يدعم (عبد اللاى لى) رأيه استند على مقال للكاتب «فرنسوا ولتر» نشرته صحيفة - «الموند الفرنسية» وقد نقل «لى» فقرات طويلة من هذا المقال فى كتابه السالف الذكر حيث يقول : إن الذى يظهر فى جلاء فى الأراضى الفرنسية فيما وراء البحار هو مساهمة الدولة الأوربية المستعمرة من الناحية المالية كما يظهر بطء التوسع إلى جانب ضعف الاستثمار الخاص وازدياد التفضيل الممنوح لبضائع المستوردة من الدولة المستعمرة كل هذه الأمور متماسكة ومتساندة . فلو أن نظاماً معتدلاً فى التفضيل عمل به لما خالف ذلك المنطق السليم والصواب . ولكن أراضينا فيما وراء البحار محوطة بشبكة من القيود ومن حقوقنا تجعلنا نحن الفرنسيين مضطرين لتوريد ٢/٣ مجموع ما يستوردونه علماً بأن ٥/٦ وارداتهم من أوربا . وأن مثل هذا الامتياز الملزم يكلف تكاليف باهظة . إذ تضطر هذه المستعمرات أن تستورد البضائع بالثمن لأن البضائع الرخيصة يمنع دخولها هذه المناطق ، وهذا يقلل من دخل المستعمر الحقيقى ومن ثم يقلل من الموارد التى يستطيعون أن يستقطعوها من هذا الدخل لكى يضمنوا استثمار أموالهم . والذى يشجع أكثر وأكثر هو أن صناعاتنا فى فرنسا تعتمد اعتماداً كبيراً على ما تسنه من قوانين لحماية هذه الصناعات حتى تسيطر هذه الصناعة بفعل القوانين على أسواق أراضى المستعمرات . فلم تحاول هذه الصناعة أن تمول التقدم الصناعى هناك . إذ أنها تخشى المنافسة ، ولهذا فإنه بالرغم من المشاريع التى تمولها خزينة دولتنا (فرنسا) العامة فإن مجمل المبالغ المستثمرة فى المستعمرات يظل غير كاف . ومع ذلك فإن الميزان الحسابى بين فرنسا (منطقة الفرنك من جهة والدول الأجنبية من جهة أخرى ليس فى صالح فرنسا . وإذاً فهذه البضائع تصرف فى السوق السهلة (أى فى أراضى المستعمرات) بدلاً من أن تشق طريقها نحو الأسواق الخارجية . فماذا كانت النتائج ؟ . . الميزانية الفرنسية مثقلة بدرجة كبيرة ، وتنمية المستعمرات بطيئة والمعونة غير

المباشرة تعوق الصناعات الفرنسية فى أن تبذل جهداً بحيث تستطيع مناقسة الدول الأخرى .

وكما تلاحظ أن الكاتب «لى» يتهم المفهوم الذى تتضمنه المعونة الاقتصادية أكثر من اتهامه المعونة نفسها ، ويرى أن عملية صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية لن تؤدى إلا للفشل لأنهم لم يغيروا شيئاً من بنيان الحلف الاستعمارى .

ويبرز «مامادوديا» فى كتابه «آراء حول اقتصاد أفريقيا السوداء» يبرز أهمية الطريق المنعطف الذى اتخذه اقتصاد المستعمرات غداة الحرب العالمية الثانية . إذ بدت لى سياسة المعونة والاستثمار كأنها تنبئ بنهاية اقتصاد الحلف الاستعمارى ، ويبين رجل الاقتصاد السنغالى أهمية الاستثمارات التى حققها صندوق الاستثمار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تحت اسم النقطة الرابعة الأمريكية والتى يتولاها البنك الدولى ، وكذا الاستثمارات التى تتولاها هيئة التعاون والتنمية فى المستعمرات وغيرها . كل هذه الدلالات تجعلنا نعتقد أننا نسير فى طريق اقتصاد مبنى على الهبات . والمنح ولا يمكن أن نحيد عنه . ومهما كانت البواعث التى تتسم بطابع الأنانية أو بغيرها والتى سببت هذا التطور فإن «مامادويا» يرى أننا لا نستطيع أن نعتبر هذا الاقتصاد المبنى على الهبات أنه باعث على إحياء الحلف الاستعمارى بصورة مبسطة واضحة ولكن هذه الملاحظة لا تمنع «ديا» من تقديم تحفظات هامة . ويبين هذا الكاتب السنغالى أن الطابع الأساسى لهذا التطور هو أنه تابع عن السلطات العامة . كما يلاحظ أن هذه السلطات العامة قد تحلت فى كل مكان تقريباً عن دورها كموزع للسلفيات المالية على شركات اقتصادية مختلطة حيث تهيمن وتسيطر المصالح الفردية .

وعلاوة على ذلك فإن سياسة الاستثمار الجديدة لم تغير من تبعية الدول الأفريقية تجاه بعض الزراعات الصناعية مثل الفول السودانى والكاكاو والبن وخلافه . ويظل اقتصاد هذه الدول حساساً لتقلبات الأسعار العالمية أكثر من ذى قبل .

وأخيراً فإن العمال الأفريقيين لم يستفيدوا من هذا التقديم السريع فى الإنتاج . ونستطيع أن نقول إنه حتى القوة الشرائية لهؤلاء العمال قد انخفضت . ففى السنغال مثلاً كان الفلاح الذى يبيع مائة كيلو جرام من الفول السودانى فى سنة ١٩٣٨ يستطيع أن يشترى لنفسه ٧٥ كيلو جراماً من الأرز ، بينما نرى فى عام ١٩٥٥ أن نفس الكمية (١٠٠ كيلو جرام) من المحاصيل التى يستخرج منها الزيت لا يسمح له بأكثر من ٤٢,٥ كيلو جراماً من الأرز . وعلى هذه الوتيرة يستمر النقد لهذه الأوضاع ويصير لاذعاً . وقد اقترح «مامادويا» البرنامج التالى : بناء اقتصاد يكمل بعضه البعض ويقام أولاً داخلياً (محلياً) بين مناطق الإنتاج الكبرى على أن تنظم على هيئة مجموعات اقتصادية كبيرة بفضل

تعديل الحدود تعديلاً يحترم الأوضاع الجغرافية أكثر مما فعله تقسيم أوربا لهذه الحدود سياسيًّا . وعلى أن يكون هذا الاقتصاد الجديد اقتصاداً مكملاً للغرب وذلك بمعنى التضامن المشترك الحقيق حتى يصبح التعاون بين أوربا وأفريقيا تعاوناً سليماً لا على أساس المشاركة بين القوى والضعيف .

حجة خاطئة (تعلل خاطئ) .

هناك مشكلة كبرى يجب أن تحلها أى سياسة استثمارية . . هذه المشكلة هى :

القطاعات . إذ يجب أن يبذل فيها المجهود الرئيسى . ويهاجم «مامادوديا» إحدى هذه التعللات الخاطئة التى يزعمها بعض رجال الاقتصاد وبعض رجال الجغرافيا . بل ويفرضونها على أفريقيا . هذه الحجة هى :

هل يجب إعطاء الأولوية للزراعة أم للصناعة ، وهل يمكن أن تتخلى واحدة لصالح الأخرى ؟ .

يقترح «ماما دويا» اقتصاداً متوازناً يعطى لكل من الزراعة والصناعة مكانتها ويفضح آراء بعض رجال الجغرافيا الذين يدعون أن قدرة أفريقيا كانت أولاً وقبل كل شىء كفاية زراعية ولهذا فهم يحكمون مقدماً بالتخلف الطويل الأمد .

ويرد «دويا» على «بيرجورو» الذى يرى أن التصنيع يجب أن يؤجل إلى أجل بعيد بسبب الظروف الجغرافية المحلية وخاصة قلة عدد السكان ، ورد هذا فى كتابه بعنوان «البلاد الاستوائية» ، ويرد «دويا» قائلاً إننا نلاحظ أن نوعاً معيناً من الطابع الأبوى ينبثق بين صاحب العمل والعامل يميل فيه الأول إلى الاحتفاظ بالسلطة وإلى رعاية الآخر وهو أمر يختفى وراء الصيغة الفنية وبين نظرية وظيفة أفريقيا على أنها وظيفة زراعية محصنة وأن القارة ستظل مصدراً أبدياً للمنتجات الزراعية للأسواق الخارجية .

وفى خلال المؤتمر الثانى للكتاب والفنانين السود هوجم رجل من رجالات الاقتصاد الأفريقيين من الذين يتبنون فكرة أن الزراعة يجب أن تظل المورد الرئيسى للقارة ، فاختتم هذا المؤلف تحليله بقوله : مهما كانت وجهات نظرهم الأيدبولوجية فإن رجال الدول النامية يرفضون قبول أى شرح تكون نتائجه بقاءهم فى الفاقة قانعين[1] .

---

(١) يجب ألا تخلط اسم كاتب المقال (مسئوليات رجل الاقتصاد الأفريقى» وهو سنغالى مع الدبلوماسى الموريتانى الذى يحمل نفس الإسم .

ولكن الأمر المثير والذى يسترعى النظر أكثر فأكثر هو أن ما يسوقه الكتاب غير الماركسيين من آراء وحجج مثل «تيفوبرجيريه» وهو مسيحى متعصب لدينه فإن هذه الحجج تلتقى بآراء وحجج إخوانه من الكتاب المتمسكين بالأيدلوجية الماركسية وأن هذا اللقاء يختلف فى درجة لقائه ابتداء من «ديا» إلى «لى» إلى ماهيموث ديوب .

obeikandl.com

obeikandl.com

البـاب السـابع

الأدب المنحـاز

« إن الأدب الأفريقى أدب منحاز » صرح بهذا القول « لبومولد سيدار سنغور » فى المؤتمر الأول الدولى للكتاب والفنانين السود الذى عقد فى السربون عام ١٩٥٦ . وعليه فإن الشعر والقصة الافريقيين محصوران ومحددان فى إطار الموقف الاستعمارى ، ولم يخرج عنه الشاعر ولا القصصى الأفريقى ، بل عاشا فى هذا الإطار ولم يخرجا عنه أمثال « سينبر » فقد رأى فيها « أسلحة سحرية » يقاتل بها غالبوه ويقهرهم لأنهم أناس سذج .

فقد حذا السعراء الأفريقيون فى الواقع حذو شعراء جزر الأنتيل الذى منهم « ليون ج . دماس » فهو أول من جمع عام ١٩٤٧ نصوصهم فى كتابه بعنوان « مختارات من الشعراء الناطقين بالفرنسية » .

كما كان مؤلف كتاب Black Label et Pigment حيث يقول إنه انقضى الزمن الذى الذى كان فيه الشاعر الزنجى فى جزر الأنتيل يحس شرفاً كبيراً إذا ما استطاع الرجل الأبيض أن يقرأ كتاباً له دون أن يعلم أن مؤلفه رجل ملون . ويسترسل « دماس » فى حديثه قائلاً : لم يعد من اليوم أن يكون الكاتب صاحب ضمير أو أن يحافظ على ما تقتضيه قواعد اللغة أو أن يخرج على أوزان الشعر أو يقوم بتأليف قصائد لا عيب فيها . فقد عاش الشاعر على التراث الذى خلفه أمثال « الكونت دى ليل وفرنسوا كوبيه » و « وسلوى برودام » و « كافول مندس » و « وليون ديركس » وأصبح وارثاً لهم .

فقد أنقضى عهد الكتب والتحريم وحل محله عهد آخر . عهد أحس فيه الإنسان المستعمر عن وعى وعن فهم حقوقه وواجباته ككاتب أو روائى أو صحفى أو شاعر . فالفقر والجهل واستغلال الإنسان للإنسان والتفرقة التعنصرية – اجتماعية وسياسية – التى يقاسى منها الرجل الأسود أو الأصفر وكذا أعمال السخرة والظلم وعدم المساواة والكذب والاستسلام والنصب

والاحتيال والمزاعم والمحاباة والجبن والتنازل والجرائم التى ترتكب باسم الحرية والإخاء والمساواة كل هذا تناوله الشعر القومى المكتوب باللغة الفرنسية . واختتم هذا الشاعر « داماس » حديثه قائلاً : وتداخل الأدب فى السياسة أكثر فأكثر واتفقت الأحداث وأزمنتها بينهما فى مؤلفات ممثلى المدرسة الحديثة [1] .

وبعد مرور خمسة عشر عاماً وجد « هنرى كريا » التعبير الذى جعله عنواناً لديوان شعره الجزائرى . هذا التعبير هو : إن الثورة والسفر شىء واحد « وفى نفس العام كتب أحد رواد الشعر الأفريقيين « ماريو دى اندارد » وهو من الشعراء الناطقين باللغة البرتغالية . كتب يقول : « ليست هناك حاجة للعودة هنا إلى الموقف المشترك الذى اتخذه الشعراء الأفريقيون والذى يظهر بوضوح فى مؤلفاتهم . فهم جميعاً يؤمنون بأن الموضوع الأساسى يدور حول معركة الهدف منها تبديد الاضطهاد الاستعمارى : ولقد لخص « فريسكوندنشونا » هذا الكفاح فى جملة واحدة فيقول فى مستهل ديوانه بعنوان « أزهار من الخزف الأحمر » : لست شاعراً إنما أريد أن أكون مكافحاً » (٢) .

الشعراء

لقد ألهمت شعراء أفريقيا بالوحى كل من الثورة على السيطرة الاستعمارية والشعور بالألم والضغينة من التفرقة العنصرية ، وكذلك المرارة التى ترسبت فى النفوس من تجارة الرقيق ، ومع أن هذه الذكريات بعيدة إلا أن تصوير الرق بقى موضوعاً هاماً تناوله الشعر الأفريقى بالوصف وبالعلاج . وهل كان يمكن أن يكون غير ذلك ؟ . .

فى عام ١٧٧٣ كتبت الشاعرة الأمريكية « فيلس وتلى » وهى إحدى رائدات الشعر الأسود ، كتبت تقول فى قصيدتها :

أتستطيع يا إلهى عندما تنصت إلى غنائى
أن تعجب وتدهش من أين ينبثق حبى للحرية ؟
إنه ينبثق من حيث تنبع سعادة الجميع .
والتى تفهمها فقط القلوب الحساسة

(١) من مقال صدر فى مجلة أوربا عدد ٣٨١ فى يناير ٦١ تحت عنوان شعراء سود ناطقون باللغة البرتغالية .
(٢) ورد فى كتاب (توماس ميلون) بعنوان الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية فى الأدب .

فإنني وأنا صبية صغيرة انتزعني القدر القاسي من مهدي السعيد في أفريقيا .
فأي سيل لدمع يمزق القلوب وأي حزن مزق قلب والدي
لقد كانت نفسي صلبة كالحديد لم تتأثر بإحساس الشقاء
هي النفس التي انتزعت لبنة من أحضان أبيها
تلك كانت قصتي
فهل أستطيع أن أتوسل إليك يا إلهي حتى لا يذوق غيري أبداً مثل هذا المصير الجائر (١) .

ويوجه الشاعر البرازيلي المولد (ولد من أب أبيض وأم سوداء من الرقيق) «لوي جاما» والذي أصبح محامياً بعد أن ثقف نفسه بنفسه - وجه هذا المحامي صرخته مدوية للطبقة الأرستقراطية في البرازيل الذين تناسوا أصلهم الأسود بعد مرور مائة سنة . صرخ فيهم ليثأر من ازدرائهم للسود فيقول :

إذا كان نبلاء اليوم الذين يملؤهم الغرور
أجداداً يدفنون في غينيا
وهم سادرون في الكبر والرذيلة .
قد تناسوا السود الذين هم إخوانهم
فإذا كان هؤلاء المولدون وقد شحب لونهم
قد أصبحوا يعتقدون أنهم من أصل عريق
وتحصفهم نزوة حب الظهور فتجعلهم يحتقرون جدتهم السوداء
قد تدهش أيها القارئ من هذه البدعة الجديدة
ذلك لأن كل شيء في البرازيل غريب الأطوار(٢)

* * *

ويقدم الشاعر الكوبي الزنجي «نيقولا جيين» نفسه إلى القراء في ثلاثة أبيات من الشعر فيقول :

إنني ابن
وحفيد
وحفيد عبد (من الرقيق)(٣)

(١) وردت هذه القصيدة في كتاب الأب «جريجوار» بعنوان نبذة عن أدب الزنوج .
(٢) وردت هذه الأبيات في كتاب «روجيه باستيد» بعنوان نشأة الشعر الزنجي في البرازيل .
(٣) من كتاب تحت عنوان : أغاني كريول وقصائد أخرى ترجمة كلود كوفون إلى اللغة الفرنسية .

إن ما يثير الدهشة حقًّا أن موضوع الرق مازال مدار شعر الأفريقيين حتى الآن . ويقدم لنا سارتر فى كتابه «إله الموسيقى الأسود» تعليلاً لهذه الظاهرة الخاصة بالرق فيقول :

لقد شرب الأفريق كأس المرارة حتى الثمالة خلال القرون العديدة من العبودية . وأن العبودية حدث من أحداث الماضى لم يعرفه كتابنا ولا آباؤهم معرفة مباشرة . ولكنه كان كابوساً ضخماً جثم فوق صدورهم حتى أن الجد والجدة منهم غير واثقين إن كانا قد أفاقا من رقادهما بعد وتخلصا من هذا الكابوس . فى كل ناحية من نواحى الأرض نجد السود الذين فرقتهم لعنة وسياسة مستعمريهم يختزنونها فى ذاكرتهم كحدث مشترك ولن يدهشنا هذا الأمر إذا ما ذكرنا أن الفلاحين الفرنسيين عام ١٧٨٩ مازالوا يذكرون الرعب والذعر اللذين حاقا بهم وبأجدادهم إبان حرب المائة سنة (١) .

ويقينا أن مختارات «سنفورد» هذه والتى يعتبر كتاب (سارتر) «إله الموسيقى الأسود» مقدمة لها يرجع تاريخها إلى عام ١٩٤٨ وتشمل عدداً من كتاب جزر الأنتيل أكثر بكثير من عدد الكتاب الأفريقيين . ولكن تحليل سارتر لا يزال صحيحاً بالنسبة للكتاب الأفريقيين المحدثين أمثال الكاتب الكنغولى «مارتال سندا» الذى لم ينس مطلقاً هذه الذكرى الأليمة كما يظهر جلياً فى قصيدته «نور الفجر» حيث يقول :

يا تاجر الرقيق
أيها الجرح الذى لا يندمل فى كف أفريقيا
إن صوت السياط وآثار الحبال حول لأعناق
لتحبس تيارات فكرى المتدفقة الثائرة

• • •

وما ذكريات الشاعر (تشيكايا امتام) «بأقل من ذكريات» «مارتال سندا» حسًّا ، حين كتب كتابه بعنوان «تاريخ مختصر» فيقول :

كان البحر لا يطيع سوى ربان سفن النخاسة والرق
وكان العبيد يهوون إلى السفن مدفوعين برغم ابتساماتهم الساحرة

وكانت أجراس الخطر تدق . بتوجيه ضربات من الأقدام فى بطون الحبالى من النساء اللائى يمشين . فيعلن وقتذاك حظر التجول حتى لا يراهن أحد أثناء احتضارهن .

ومن ثم أمر آخر . . . ما هو الفارق بين العبد الرقيق والمستعمر؟ . .

(١) ورد هذا فى كتاب «ليوبولد سنفور» بعنوان مختارات من الشعر الزنجى والملاجاشى الجديد .

فالكاتب الشاعر الملاجاشى «رابيريفلو» لا يجد فارقاً ما بينهما إذ يقول :

إن صانع الزجاج الزنجى الذى لم ير
أحد حدقات عينيه ذات النظرات التى لا تحصى
والذى لم يطاوله أحد فى ارتفاع كتفيه
هذا العبد الموشى بأوان من زجاج

* * *

وكل هذه الذكريات ما هى إلا ظواهر للموضوع الأهم وهو حالة الزنجى . . فيتحدث الشاعر «برنارد داريه» عن شقائه كتاب «دورة الأيام» فيقول :

وأن جعلتنى أحمل جميع الآلام . . . .

* * *

كما يصف الشاعر الأنجولى «أجوستينونتو» شقاء الزنجى المستغل فيقول :

نحن أطفال الأدغال من : سنزلاس : العرايا
الصغار بلا مدارس والذين يلعبون بكرة من الخرق
على أراض مسطحة وقت الظهيرة
إننا نحن الذين نستأجر لكى نحرق حياتنا فى حقول البن
نحن السود الجهلاء الذين يفرض عليهم احترام البيض
وأن نخشى الثرى صاحب المال
إننا أبناء أحياء الزنوج التى لا يدخلها الكهرباء وأبناء
الرجال الذين يعانون سكرات الموت على نغمات ودقات الموت
أن أبناءك جياع وعطشى
إنهم يخجلون من أن ينادوك بلفظ (أماه)
فهم يخشون عبور الشارع ويخشون الناس [1]

* * *

وقد جمع «دافيد ديوب» كل ألفاظ الإهانات التى توجه لبنى جنسه من الزنوج فى قصيدته بعنوان «الأبيض قال لى» فيقول : -

(١) ظهر هذا الشعر فى مجلة «أوربا» عدد يناير سنة ٦١ .

ما أنت إلا زنجى
زنجى قذر
فقلبك اسفنجة معدة لتشرب من جنون السائل المسمم بالرذيلة
ولونك يجيش دمك فى العبودية الخالدة أبداً
فقد طبعك حديد العدالة المحمى . طبعت جسدك بالفسق
وطريقك متعرج بالإذلال . ومستقبلك أيها الوحش الملعون
هو حاضرك المليء بالخزى والعار (١)

* * *

ولكن هذا ليس أن الشاعر الزنجى يحتج للاستسلام . فإن ثورته قائمة على العمل المجيد الأسود الذى طالما تحدث عنه سارتر ، ولاحظ التصميم عليه وأظهره فى قصائد عدة من مختارات «سنفور» ، ومن أهداف هذا العمل المجيد انتزاع الزنجى من إطار الاستسلام والرضوخ الذى اعتادوا تصويره على صفائح من النحاس . إنهم بلا شك شعراء هايتى مواطنو «توسان لوفيرتير» الذين سيكونون أول من يفعل ذلك من أجل الزنجى . فها هو «جاك رومان» الذى يرى أن الزنجى هو ناقل الثورات وناشرها (٢) .

* * *

يوجه «جان . ف . بربير» خطابه لبنى جنسه ليذكرهم بكفاحهم الذى لا ينتهى ضد السيطرة الأوربية فيقول : —

إن خمسة قرون ترقيكم حاملين السلاح
حيث تغتنم الأجناس المستغلة درساً فى الشعور بالحرية
فى مانت دمنجو — ملأتم بالضحايا ورصفتم بأحجار لا تحمل الأسماء
الطريق الضيق الملتوى الذى فتح ذات يوم على طريق الاستغلال المظفر (٣) كما أن الشاعر «بيريا موت» قد أعلن من قبل ميزان العدالة الذى سيضعه الشاب الأسود فيقول : —

لقد اغتالوا إخواننا . والدكتور مالان مع رجاله
يشربون القهوة والشاى باللبن . إنهم يقتلوننا

---

(١) وردت هذه القصيدة فى كتاب الشعر الجديد الزنجى والملاجاشى .
(٢) ورد هذا فى كتاب «الشعر الجديد الزنجى والملاجاشى ص ١٤٠ .
(٣) ورد فى نفس الكتاب المذكور ص (١٢٦) .

ولكننا مستمرون . نتقدم على أيدينا وأرجلنا . نحن الشعب الأسود . تشجعوا
إنهم يسمعوننا . منصل . إننا نسبح باسمك يا شمس الحرية
فى كل صباح ونزحف فى كل فجر فوق النيران الملتهبة .
من العدالة . ها نحن نلمس فجرنا بأيدينا بقوة سواعدنا وكياننا[1]

* * *

وكثيراً ما تناول الأفريقيون الشعراء مهمة «أوروبا فى نشر الحضارة» فى أشعارهم ساخرين وواصفين . فنجد «أمادو مصطفى واد» تناولها فى ملحمة الاستعمار «قائلا فى اقتضاب : –

هاهم قادمون «ناقلو الحضارة» وهم يصوبون
المدفع والتوراة نحو القلب الأفريقى
لقد امتلأت الأرض بالدماء . لأن أبناءها نهضوا
لكى يدافعوا عن فجر الحرية[2]

* * *

ويستعيض الشاعر النوجولى «ر . ى . ج ارماتو عن صيحة الألم والإحساس بالمهانة بالسخرية والتهكم . فنراه يهدى قصيدته «مقبرة الرجل الأبيض» بأسلوب لاذع ساخر إلى السير فرانسيس جالتون مؤسس معمل جالتون بجامعة لندن والذى كان يأمل فى أن الأجناس الصفراء من الصين سوف تقصى الأفريقى الأسود الفظ المهمل عن الأقاليم التى توجد فيها المعادن فى أفريقيا الاستوائية . كما أننا نلحظ فى كل شعره النغمة السائدة التى تتعلق بآلام الإنسان الأسود وثورته .

كان السخرية أيضاً ملاح استخدمه الشاعر النيجيرى «فولى سونيكا» فى كتابه (حديث تليفونى) حيث يسخر فى أسلوب لاذع مرير من سيدة إنجليزية صاحبة منزل أعلنت عن إيجاره وكيف أنها تصر على إيضاحات خاصة بون بشرته – كل هذا فى حديث تليفونى عندما حادثها بناء على هذا الإعلان .

ويساير هتك شعار الاستعمار ونظمه وكشف فضائحه التغنى بعظمة وجمال أفريقيا فإنهما يسيران جنباً إلى جنب متحدين المستعمر بأناشيدهم المعبرة عن وطنهم الحقيقى .

فيتغنى «مارنال سندا» فى نشيد أفريقيا . فنراه تارة لائماً على الكذب فيقول : –

(١) ورد فى كتاب الشعر فى التاريخ .

(٢) وردت فى مجلة الوجود الأفريقى ص ٢٠١ العدد ١٤ .

يا أفريقيا لماذا أنت بلاد القصص المشوهة على نمط الكاتب
القصصي الأبيض

وتارة مقهورة بقهرها الغزاة كما نجد فى قصيدته (الطبل) تام تام . (دقات الطبول) فيقول : —

أفريقية الماضى
أفريقيا المغلوبة على أمرها
يا أفريقيا . يا قارتنا الأفريقية

كما يكتب الشاعر «برنارد داويه» قصيدة طابعها التصوف فيقول فى قصيدته بعنوان «تاج أفريقيا»

سأصنع لك تاجا من الضوء الحلو
وببريق وبهاء فينوس المناطق الاستوائية
وفى مدار التلألؤ المحموم الصادر عن الجرة
سأكتب بحروف من نار اسمك يا أفريقيا

وعند العودة من إقامة طويلة فى إنجلترا اكتشف «دافيد شن نيكول» معنى الوطن الأفريقى بالنسبة إليه :

إننى أعرف الآن ما أنت يا أفريقيا
إنك السعادة والرضا والامتلاء
والطيور التى تغرد على شجر المانجو

* * *

وقد ظهر موضوع التحرر الأفريقى فى الشعر الزنجى فى هذه السنوات الأخيرة . فالاستقلال فى رأى «ميشيل دى أنانج» الذى كثيراً ما تمناه منذ سنة ١٩٤٩ لا بد أن يكون عصراً ذهبياً مليئاً بالنور بعد هذا الماضى المظلم الملئ بالكفاح فيقول : —

حينما يبزغ فجر الاستقلال على هذا الشاطئ الذهبى
آه . دعوه يبزغ على أرض يكون فيها نور الحرية
الرائع . فيطرد الحزن والطمع وسحب الخلافات

وقد كان تحرر الوطن مصدر وحي «لبولدن جواشم» حتى ولو كان التعلق ينبثق من شعره حينما يحيي «أفريقيا التي أصبحت تسبح في حرية» فيقول : -

إنني أحيي أفريقيا التي أصبحت تسبح في حرية
إنها نهاية المتاعب يا أمي . إنني أبتهج فإنهم
أقاموا ثرواتهم وإمبراطورياتهم على براءاتك وخجلك
فيا إلهي تخير لهذا الشعب الرعاة الصالحين
ولا يكونون حكاما مجانين طماعين لا يعملون إلا
لرفع مصلحتهم ليرقوا إلى مصاف المعبودات
إنني أحيّ أفريقيا الحرة

* * *

ومرعان ما حل الوقت الذي يمتدح فيه الشاعر «لونه الأسود» ويطريه كما فعل الشاعر الغاني «ف . ا . كوبينا باركر» في قصيدته بعنوان (السماء الأفريقية) فيقول : -

اعطني أرواحا سوداء
ودعهم كما هم سود أو في سواد الشيكولاته
أو اصبغهم بلون التراب حتى يصبحوا ترابا
ولكن إذا استطعت فإني أتوسل إليك
في أن تحفظ عليهم سوادهم ليبقوا سودا

ومن المؤكد أنه يوجد شعر زنجي غير منحاز . فمواضيع الفولكلور تحتل مكاناً بارزاً لدى الشاعر «بيرانجو ديوب» في قصيدته «نفحات» أو نسمات فيقول : -

أنصت إلى الأشياء أكثر من إنصاتك إلى المخلوقات
فإن للنار صوتاً يسمع
استمع إلى صوت الماء
وانصت إلى بكاء الأدغال في الريح
إنها آهات الأسلاف والأجداد

* * *

ويوحي الفولكلور للكاتب النيجيري «ديبوى بابا لولا» فيكتب كتابه (شخصيات من الريف)

ويلهم أيضا الكاتبة الغانية «إيفو مورج» فى كتابها (تاريخ قبائل آشانتى) الذى كتب على نمط القصص عند الكاتب الفرنسى «بيرو» فتقول : حدث مرة أن كان جوز الكولا نادراً . . . .

وربما كان الأدب غير المنحاز انعكاساً للاهتمام بعدم إثارة غضب الإدارة الاستعمارية على الكاتب ، فهذا هو رأى الكاتب «دافيد ديوب» خاصًّا بديوان أشعار الكاتب الكنغولى «انطوان روجيه بالامبا» حيث يقول : هل هذا هو الحرص (فإننا نعرف على التخصيص قسوة الإدارة الملكية البلجيكية) الذى يدفع بالامبا «إلى أن يبتعد عن مواضع الخطر الكبير؟ . . ذلك أنه من المحال أن يصف إلا ما يراه فى بلاده . وإنى أشعر من جهة أخرى أن هذا الشاعر الكنغولى فى قصيدته بعنوان «لوكولى» أو طبول النصر» يترك لنا مجال التخمين حتى نلم بأفكاره حيث يقول :

إنى أسمع صرخات الهزيمة التى لا محيص عنها
إنى أسمع فحيح الأنانية
ونفسح مكاناً للروح التى
تتربع على عرش قلبى وتدق فيه
طبول النصر . إنه انتصارى
إنه انتصارنا[1]

ويصف الشاعر النيا سلاندى «جيمس . رروبادیری» اللقاء التاريخى بين ستانلى والملك الأسود موتيزا» يصف ذلك اللقاء دون ضغينة أو حقد ولكن يضفى عليه وقاراً كثيراً فيقول :-

يفتح على مصراعيه الحاجز من الغاب
هدوء لحظة واحدة من هدوء
هدوء حتى نزن الرجل
فيتقدم الملك الأسود العظيم
فيسيطر على هذا الرجل الأبيض النحيل ذى اللحية
فيشد على يده قائلا له : أيها الرجل الأبيض
مرحبا بك . ويقفل الحاجز وراءهما
لقد دخل الغرب

(١) أن لوكول «هو اسم لنوع من الطبل النحاس كان يستخدم فيما مضى لنشر الأخبار بدقات معينة .

ولقد تغنى الشعراء السود بالمصالحة والوئام فيمتدح الشاعر «دى انانج» الملكة الزابيث رئيسة الكومنولث والتى استقلت بلاده أيام حكمها . يقول :

يا ملكة القارات الواسعة والبحار
إن أبناءك البررة المختلفى الأجناس متحدون
إن العالم يصفق لجلالتك

وإن إبعاد الحقد والرغبة فى التسامح لم ينتظرا محو الاستعمار لكى يعبرا عن مشاعرهما ، فقد كان الشاعر «سنبرنو» يقول فى كتابه «فى مذكرات عودته إلى الوطن»

اعصمنى ياقلبى من كل حقد
ولا تجعل منى الرجل الحقود الذى
لا يملك سوى الحقد . حتى أحتمى فى
هذا الجنس الفريد فى نوعه
إنك تعلم مدى حبى الطاغى وتعرف أن سببه
ليس الحقد على الأجناس الأخرى .
إنى أصر على أن أكون ضارباً بمعول وان أكون من هذا الجنس الفريد فى نوعه
إن ما أريد هو من أجل الجوع العالمى والظمأ العالمى حتى أمسى حراً آخر الأمر

ويردد الشاعر «فيلكس تشيكايا أوتانس» صدى صيحة سبزبر فى قوة وفى ترفع فيقول :

لن أرى دمى على أيديهم
وأنسى أنى زنجى لأجل أن أغفر ذلك للعالم
لقد قيل إنى سأترك للسلام وشأنى ولا أكون كنغوليا

ويظهر الغفران المسيحى والصفح فى أطهر صورة عند «سنفور» إنه دعاء السلام الذى يسبقه النقش المكتوب تحت الوسام . فيقول هذا الشاعر فى قصيدته «دعاء السلام» ما يلى : —

إن عينى تمتلئ بالدموع
وها هو ثعبان الحقد يرفع رأسه فى قلبى . ذلك الثعبان الذى ظننته قد مات
اقتله يا إلهى لأنى أحب أن أستمر فى طريقى وأريد أن أصلى من أجل فرنسا خاصة

يا إلهى ضع فرنسا على يمينك من بين الأمم البيضاء
آه إنى أعرف أنها بيضاء من أوروبا وأنها هى التى اختطفت أبنائى كما يختطف
قاطع الطريق الشمالى البقر يخصب أراضيه التى تزرع قصب السكر والقطن
لأن جهد الزنجى وعرقه نوع من السماد
إنها نقلت الموت والمدفع إلى قرانا الزرقاء الوادعة وجعلت قومى يقف الواحد منهم ضد أخيه
كما يتشاجر الكلاب من أجل عظمة
وإنها عاملت من قاوموها كأنهم قطاع طرق ولصوص وبصقت على الرؤوس ذات المشاريع الواسعة .
نعم يا إلهى اغفر لفرنسا التى ترشد إلى الطريق المستقيم والتى تسير فى الطرق الضيقة الملتوية .
والتى تدعونى إلى مائدتها وتلزمنى أن أحضر معى غذائى (خبزى) والتى تعطينى باليد اليمنى وتنزع نصف ما أعطتنى بيدها اليسرى .
نعم يا إلهى اغفر لفرنسا التى تكره أن تحتل وتفرض علىّ الاحتلال بطريقة صارمة والتى تشق طرق النصر للأبطال وتعامل السنغاليين الذين يعملون معها وكأنهم مرتزقة وتجعل منهم كلاب الحراسة للإمبراطورية الفرنسية .
إنها الجمهورية ومع ذلك تسلم البلاد إلى أصحاب الامتيازات الكبرى
حتى جعلوا من بلاد ميزوتاميا (يقصد جعلوا منها بلد القلاقل) وجعلوا
من بلاد الكونغو مقبرة كبيرة فسيحة تحت الشمس البيضاء .

كتاب القصص :

« وأخيراً ظهرت قصة أفريقيا لا تخفى وراء معانيها فكرة سياسية » تلك كانت صيحة من القلب التى زفرها ناشر فرنسى عام ١٩٥٧ وهو يقدم رواية الكاتب الكاميرونى « منجويتى » بعنوان بعثة منتهية وكان لهذه الفكرة وما تركت من صدى نفس ما يبررها خاصة وأن أول قصتين نشرهما هذا المؤلف وهما « مدينة باغية » و « مسيح بومبا المسكين » وقد وقعهما باسم مستعار « ايزابوتو » كانتا قاسيتين على المستعمرين بوجه خاص . وأن قصة « بعثة منتهية » لم تغير نهج المؤلف ولم تغير طريقته .

كما أن القصة الرابعة للكاتب نفسه (مونجوبتى) وعنوانها الملك الذى حدثت له معجزة » استمرت مطبوعة بطابع السخرية الذى ساد القصتين الأوليين فظل يسخر من أعمال الحضارة التى يقوم بها المستعمرون والبعثات المسيحية .

ولم يكن الكتاب الروائيون بأقل انحياز من الشعراء فقد ظل الكشف عن فضائح نظم الحكم الاستعمارى هدف الكتاب ، فسارت على طريقة سلسلة بأكملها من القصص الأفريقى ، وهنا نسجل أن كتاب جزر الأنيل أول رسم الطريق أمثال « رينيه ماران » الذى اضطر إلى اعتزال خدمة الحكومة الاستعمارية بعد أن ألف كتابه المشهور « باتولا » إبان فترة إقامته فى « أوبانجى شارى » .

وكثيراً ما تسجل الرواية الأفريقية التى تجعل هدفها « الكفاح » الأحداث السياسية المعاصرة لها ، وخير مثل ظاهر فى هذه الناحية بالذات ما ظهر من روايات فى أفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية مثل رواية الكاتب « سامبين عثمان » الأخيرة بعنوان « قطع الخشب » الصغيرة التى يملكها الله » وهذه القصة مهداه إلى النقابيين فى أفريقيا السوداء وهى تحكى قصة إضراب عمال السكة الحديد بين دكار — النيجر عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ وهى قصة طويلة يتابع القارئ خلالها الطريق من مدينة إلى مدينة وعلى طول الخط الحديدى سير الأحداث السياسية أيضاً .

ويبدو هذا الكتاب وكأنه مجموعة تجارب لرجل نقابى له سوابقه فى أفريقيا السوداء . كما تمر بين سطوره جميع مشاكل العمل العمالى . كالسيطرة على المجاهدين الذين يعتريهم اليأس فى سرعة والتضامن من مكان إلى مكان . ومساندة النقابات (نقابات الفروع المهنية وكذلك مراكز النقابات فى الدولة الأوروبية الأم . وجباية رأس المال للتضامن . كما تتبع يوماً بعد يوم ردود فعل السكان وتحفظ القدامى فى بعض الأحيان وقلق النساء التى ستنقطع نهائياً مساعداتهن . وفقدان الضمير عند بعض المنظورين . والتواطؤ بين أعضاء البرلمان السود والسلطات الدينية الإسلامية مع المستعمرين وأخيراً تنفذ إلى معسكر العدو ونعنى بها إدارة الشركة الاحتكارية التى تقوم بجميع مناورات التعطيل الممكنة : كإنشاء نقابة منافسة ومحاولة مد زعماء الحركة بالمال كهبات ومحاولة مزيفة للمصالحة ومنع التجار السوريين عمل سلفيات أو بيع بالأجل لعائلات المضربين الجوعى حتى ينتهى الأمر فى النهاية بالصدام الدموى بين حراس الأمن فى المنطقة وبين السكان .

كما نجد أيضاً فى قصة « برنارو داويه » بعنوان « كليمبه » تصويراً لكفاح الشعابين والوطنيين الأفريقيين . فيسجن كليمبه لأنه كشف عن فضائح وظلم الإدارة الاستعمارية فى إحدى الصحف وحين قدم للمحاكمة أمام قاض أوربى يصغره كثيراً فى السن فقد مرت بخاطره فكرة إزالة الغشاوة

عن عينيه : كان هذا القاضى يبدأ حياته الوظائفية فى الفترة التى كان قد مر على كليميه ورفاقه ١٥ عاماً فى العمل الوظائفى على الأقل ولكن كان عليهم أن يظلوا فى أسفل الدرج حيث مكانهم المخصص لهم .

وربما كان الكتاب الكلاسيكى (ذو الطابع التقليدى) فى هذا المضمار الروائى هو كتاب للكاتب « بيتر ابراهامز » من جنوب أفريقيا فهو يحكى قصة ارتقاء طالب أسود ليتولى السلطة فى بلاده التى تسمى « الوحدة الأفريقية » ولكنه يغتال لأنه خان القضية الوطنية الأفريقية بأن سلم إلى شرطة دولة مجاورة له اسمها « الدولة الجامعة » التى يبقى فيها الأوروبيون السادة وأصحاب السلطان . سلم إليهم زعيماً أفريقياً آخر اسمه « مبدهى » الذى كان قد طلب منه العون . وعلى هذا النمط كان ثمن المعونة المالية والتعاون الفنى الذى يقدمه الرجل الأبيض . وتصور رواية ابراهامز تصويراً رائعاً جو الاجتماعات العمالية (حزب العمال) فى لندن التى يدعى إليها الطلاب السود . كما أننا نعيش فى هذه الرواية وسط العمل السياسى فى الدول الأفريقية . ونرى فيها أيضاً طبع الصحيفة اليوم (التى نطلق عليها بالكاد كلمة صحيفة) وهى التى تعطى إشارة البدء بالإضراب . كما نلتقى خلال قراءة هذه الرواية بسيدات السوق الأفريقيات اللاتى تتزعمهن « سيلينا » واللاتى سيكون لتأييدهن العمل القاطع فى الحركة الوطنية وكأن تأييدهن الورقة الرابحة لهذه الحركة . كما نتابع أيضاً عمل الرجل الأنتيلى الأسود « توم لاندوود » الذى مهد وأعد خلال سنين طويلة فى مسكنه الحقير بلندن — مهد لنظرية القومية الأفريقية وكيف عاد ليصبح وزيراً فى أفريقيا ثم يزال من الطريق بلا رحمة . وأخيراً نلتقى بالطراز الجديد من موظفى الإدارة الاستعمارية البريطانية ممثل فى شخص حاكم جديد صاحب أفكار تحررية كما نقابل فى هذه القصة الحكام والزعماء الأفريقيين المحافظين والذين لا يميلون إلى المخاطرة . وينتهى هذا الكتاب بقتل « أودومو » وهو وحيد فى قصره المنيف ونراه قد جن جنونه حين يسمع فى الليل دقات طبول الموت ويبقى فى انتظار الموت كحيوان حبيس قبل أن يهوى تحت السكين العادلة . وأنها « سيلينا » التى أمرت بإعدامه هى التى كانت قد رفعته إلى السلطة من قبل .

وقد أثارت رواية « ابراهامز » بعض المشاعر فى ساحل الذهب عام ١٩٥٦ وذلك قبل الاستقلال بعدة شهور وكانت وكأنها نبؤة سيئة . ذلك للتشابه بين حياة « أدومو » وحياة نكروما فى بدايتها ولم يلبث هذا التشابه أن استرعى الأنظار . فقد كان رئيس غانا الحالى قد استفاد حقاً من تأييد نساء بلاده اللاتى يسيطرون على جميع التجارة الصغيرة كما هى القاعدة فى ساحل أفريقيا

الغربى . . وكان الزعيم الغانى يستلهم الوحى من صاحب نظرية الوحدة الأفريقية الجامايكى « جورج بادمور » فقد استدعاه بعد ذلك إلى أكرا وجعله مستشاره منذ الاستقلال . . ومما استرعى التفكير والتأمل شخصية لاندوود « وحتى السير شارل ارون كلارك » الحاكم العام فى هذه الآونة كانت له أفكار متحررة تماماً كشخصية الرواية . وحتى الإنذار المزيف فى يوليو سنة ٥٦ قد صدر عن جريدة « ديلى جرافيك » فى أكرا والتى أفردت فى صفحاتها نقداً طويلاً لرواية (بيتر ابراهامز » وقد ألمحت فى مقالها بالعبارة الآتية : إن العلاقة بأحداث ساحل الذهب والقصة واضحة [1] .

وفى أفريقيا الجنوبية قدمت التفرقة العنصرية ونظام الحكم الذى يطبق هناك كل هذا – وقد قدم الكتاب مواضيع لكثير من رواياتهم . وكانت غالبية الكتب التى ألفها « ابراهامز » تصور الجو الاجتماعى الذى تسوده التفرقة العنصرية . ومن هذه الناحية الاجتماعية فما لا شك فيه أن الكاتب الروائى « ريتشارد رايت » من جنوب أفريقيا فى مؤلفاته مثل « خادمى وطريق الرعد » و « هذه الحرية » قد عبر عن هذا الإطار الاجتماعى . ويعتبر « ريتشارد رايت » فى نواح كثيرة كاتب أفريقيا الجنوبية الاجتماعى فقد كتب مجموعة من الكتب منها « خادمى » الذى تحدث فيه عن الحرية .

كما أن قصة حياة الكاتب « خرقيل مغاليلى » بعنوان « اهبط إلى الشارع الثانى » تعتبر من نفس المعنى الاجتماعى حيث نجد فيها نموذجية لحياة زنوج أفريقيا — وهى دوريات الشرطة بحثاً عن الحوانيت التى تباع فيها الكحول المقطرة بطريقة غير قانونية . وإخلاء سكان حى من أحياء الزنوج بالقوة ، وبتخلل هذا العنف إطلاق الشرطة النار على السكان فيقتلون صبيًّا .

كما يقدم « خرقيل مغاليلى » هذا فى كتابه « صورة أفريقيا » إحصاء طويلا للأدب الزنجى الذى يحتج فيه الكتاب على الأوضاع القائمة فى جنوب أفريقيا . فهو يذكر اسم الكاتب « ابراهامز » جنباً إلى جنب اسم الكاتب الشاعر « هـ . ى . ادلومو » فقد عبر هذا الأخير عن يأس بنى جنسه المضطهد فى قصيدته المطولة بعنوان « وادى الألف تل » أو وادى التلال الألف » .

و « ألفريد هوتشينسون » أحد المتهمين فى قضية الخيانة المشهورة والذى يفضح فى كتابه « الطريق إلى غانا » الجو الخانق الذى دفعه إلى أن يهجر بلاده ويختار منفاه . وهناك كتاب قصص — وقصص قصيرة أمثال « ريتشارد ريف . واليكس لاجوما وبلوك موديزان » وقد كتب

(١) هذه القضية أقيمت ضد حوالى مائة من المثقفين الأفريقيين لا لذنب سوى أنهم فى خلاف مع نظام الحكم الذى يقضى بالتفرقة العنصرية وانتهت القضية فى نهاية الأمر بلا نتيجة فقد برىء جميع المتهمين وكان آخرهم فى عام ١٩٦١ وقد بدأت هذه القضية عام ٥٦ وإذاً فقد استغرقت وقتاً طويلاً جدًّا .

ونشر هذا الأخير قصة حياته بعنوان « ابتى على صفحات التاريخ » .

كما أن رواية « نونى ياباق » وهى ابنة مدرس زنجى من قبيلة « كـوزا » هذه الرواية بعنوان رسمت بالألوان) وهى أيضاً وصف مرير لنظام حكم التفرقة العنصرية . وقد اقترح ناقد فى الصحيفة الأسبوعية الإنجليزية « الأبزرفر » حيث تحدث عن هذه الرواية فقال : إنه كتاب يجب على مستر فيرفورد أن يقرأه .

ومن غير شك فإن استغلال العامل أو الفلاح الأفريقى عن طريق نظام الحكم كان موضوع روايات كثيرة . وفى حقيقة الأمر أن أول كتاب للكاتب « منجويتى » بعنوان « مدينة باغية » يدور حول حادثين متعلقين بالاقتصاد : -

صاحب عمل أوروبى لا يعطى عماله الزنوج حقوقهم . ثم فلاح أفريقى شاب لا تسمح له الإدارة ببيع محصوله من الكاكاو . ثم يقتل صاحب العمل الأوروبى خلال مشاجرة من عماله الذين حضروا ليطالبوه بأجورهم . والمذنب هو العامل كوميه وتندفع الشرطة للبحث عنه ويساعده فى هروبه الفلاح الشاب « باندا » فيعتدى البوليس على الفلاح بالضرب مرة ثانية وقد أوسعوه ضرباً فى المرة الأولى لأنه احتج على قرار مصلحة المراجعة للمحاصيل التى أعلنت أن محصوله من الكاكاو غير صالح للاستهلاك فى حين أن هذا المحصول ثمرة عمل وعناية لمدة سنة كاملة وأن كمية الكاكاو تربو على المائتين من الكيلوجرامات .

ولعل « باندا » ارتكب خطأً واحداً ذلك أنه لم يقبل أن « يتفاهم » مع المشرفين على هذه العملية (عن طريق الرشوة) .

كما يفضح « بنيامين ما يتب » فى كتابه « أفريقيا إننا نجهلك » يفضح استغلال التجار البيض للفلاح الأفريقى – ولكن بطل قصة « سامبا » يهاجم أيضاً الجيل القديم من صغار المزارعين الزنوج والذين يقبلون النظام الاستعمارى بطريقة سلبية . وقد أثار الكاتب الكاميرونى « جان ايكيل ماتيبا » قضية السخرة فى الكاميرون فى كتابه « (إنها أفريقيا) التى كانت تمارس فى الكاميرون بين الحربين . فقد أحاطت ببطل الكتاب جميع المتاعب من سخرة وضرب وسجن لا ذنب سوى أنه رفض أن يخدم الإدارة الفرنسية بعد رحيل الألمان الذين كان قد اطمأن إليهم واستطاع معهم مواصلة دراسته حتى أنه بدأ حياة عملية متألقة انتهت حين هزموا . وفى كتاب « وطنى . شعبى الجميل » للكاتب سمبين عثمان نجد أن البطل « عمر فاى » يهاجم احتكار الشركات الأوروبية التى تشترى محاصيل الزراعات الصناعية بثمن بخس عن طريق تأسيس جمعية تعاونية ويصدم حين لا

تكترث له الإدارة بل ويغتاله مأجورون من الشركات التى أزعجها أن رأت امتيازاتها مهددة . .

كما يوحى السجن والضرب والتعذيب من رجال الشرطة للمقبوض عليهم والإذلال العنصرى كل ذلك يوحى بمواضيع للرواية الأفريقية التى تهدف الكفاح . فى كتابين لفرديناند ايونو يسجل أن السجن كان نهاية مفجعة ؛ وفى كتاب « حياة خادم » حيث يتهم الخادم الشاب « توندى » بسرقة لم يرتكبها - فيموت من الإعياء والعذاب من معذبيه إبان استجوابه فاضطروا أن يدخلوه المستشفى - وحين حاول الهرب منه نراه يموت . أما فى قصة « الزنجى العجوز والوسام » فإن النتائج أقل خطورة . إذ يقبض على « مكا » فى نفس اليوم الذى يمنح فيه وسام الاستحقاق لسلوكه النموذجى . فيلقى تعذيباً من الضرب بالسياط قبل أن يتعرفوا عليه فى آخر الأمر . ولكنه قد فقد إلى الأبد ثقته فى البيض وصداقتهم .

وإن أبشع مناظر الضرب والتعذيب يرويها الكاتب « ميوحا جيكارد » لأنه عاشها بنفسه فدونها فى كتابه « بلاد الشمس المشرقة وصور من الحياة قبل ماو ماو » يروى الكاتب كيف أن ضابطين من الأوروبيين ومعهم جنود شرطة أفريقيون يستجوبون ثمانية من الزنوج قبض عليهم للتحقيق فى حادث سرقة . لقد كانت ضربات السياط المتعددة الألسنة تقع على أجسادهم كالمطر المنهمر ولم يكتف المعذب بذلك ، بل كان هناك تعذيب أقسى يتناول الأعضاء التناسلية . وقد أطلق سراح الكاتب نفسه لأنه حدث صغير لم يعمل له الختان بعد .

وآخر الشواهد على السجون وعلى معسكرات الاعتقال فى أفريقيا القصة التى يرويها الكاتب نفسه والتى يقصها الكاتب « جوزيا مقاجى كارويكى » الذى عرف أربعة عشر معسكراً بقى بها سبع سنوات على التوالى ، أى من عام ١٩٥٣ حتى ١٩٦٠ بتهمة الميل نحو حركة الماو ماو . فهو يقدم لنا صورة بشعة ومؤلمة عن المرشدين التابعين للشرطة وكيف أنهم يلبسون جلباباً ذا قلنسوة تخفى وجوههم عدا العينين ، وهم الذين يصبغون المعتقلين على فئات منهم من لا يرجى اكتسابهم مطلقاً ومنهم من يعتقل حتى يمكن اكتسابهم ومنهم من يرد له اعتباره . كما يصور الوسائل النفسية التى تستخدمها إدارة السجون فى التعذيب . وكان هؤلاء المرشدون من الأفريقيين الذين يستهويهم الكسب المادى أو الذين يحبون أن يعيشوا فى هدوء بعيدين عن العقوبات فيخدمون الإدارة نظير ذلك كما يصفهم « كاريوكى » أو كانوا من الحثالة ذوى الخسة والدناءة - كما أن الكاتب يحكى عن سوء المعاملة التى يلقاها المساجين والتى كانت كثيراً ما تؤدى إلى الموت مثل ما حدث فى معسكر « هولا » حيث كان عدد الضحايا أحد عشر ضحية .

ويحدثنا « كاربوكي » دون مبالغة عن الضرب بالعصا والذى يعقبه بعد ذلك الحبس بالزنزانة . وهذا ما حدث له فى كل مرة كان يبعث فيها سرًّا بخطابات إلى أعضاء البرلمان البريطانى من حزب العمال مثل « باربارا كاسل » لكى يطلع الرأى العام البريطانى – وقد سببت مناقشات عدة فى البرلمان الإنجليزى . ويقرر مؤلف « ماو ماو الحبيبة أن ثمانين ألفاً من سكان كينيا عرفوا المعسكرات التى أقامتها السلطة الإنجليزية لمحاربة الحركة القومية .

وأخيراً فإن مأساة حياة الزنجى تحدث عن نفسها بتعداد أنواع الإذلال المهين الذى يتعرض له الزنجى بحالة مستمرة كالإهانات والشتائم والضرب الذى يغدقه المستعمر فى سرور على الخادم أو الموظف – هذا بالإضافة إلى بعض النزوات الصادرة عن بعض الحكام الذين يشعرون بالملل والضيق فى هذه البقاع ، فيتخذون من هذه النزوات مادة تسلية يتحمل مغبتها السكان ، مثل ذلك النزوات التى كان يعملها موظف بلجيكى إذ استأنس فهداً دربه على إخافة الأفريقيين الذين كانوا يعيشون فى منطقة نفوذه . جاء هذا الوصف فى قصة حياة « موبيلا » [1] وهناك ظاهرة صغيرة غير أنه برغم بساطتها وسذاجتها إلا أن دلالتها واضحة ، وهى قصة الصبى الصغير الذى لم ير فى حياته زنجيًّا . نراه يمسح يده بعد أن يصافح « فارا » الأسود بطل كتاب « سراب باريس » للكاتب « عثمان سوسى » .

(وفى كتاب « بشرة سوداء وأقنعة بيضاء » للكاتب الأنتيلى « فرانز فانون » نرى تحليلا مسهباً للتفرقة العنصرية ، فهو يستخدم فى تحليله هذا رأى الفيلسوف الألمانى « هيجل » الذى يقول : مخلوق من أجل مخلوق آخر يستخدم الكاتب فانون هذا المفهوم ليبدأ به تحليله فى حين أن بول سارتر يقدم له عناصر هامة ليجعلها موضوع المقارنة . فيكتب سارتر بأن اليهود قد تركوا أنفسهم ليتمثلهم الغير على صورة معينة وهم يعيشون فى خوف من ألا تتمشى أفعالهم مع هذه الصورة . وهكذا فإننا نستطيع أن نقول إن سلوكهم غالباً ما يكون صادراً عن قرار معين اتخذوه فى قرارة أنفسهم .

ولكن « فانون » يعارض هذا الرأى فيقول : يمكن لليهودى أن يجهل يهوديته . فهو ليس كما يظهره الواقع – إنه يأمل وينتظر وأن أعماله وسلوكه تتقرر فى آخر الأمر . إنه أبيض وأن له بعض الملامح المميزة فإنه يمكن أن يمر دون أن يلتفت إليه أحد . إنه ينتمى إلى عنصر يجهلون أكل اللحوم

---

(١) من مذكرات كنغولى للكاتب « فراتشسكو موبيلا » ص ٢٥٠ هذا الكتاب من الكتب النادرة جداً إن لم يكن الكتاب الوحيد لمؤلف أفريقى باللغة الأسبانية . والكاتب من قبيلة آزانوية بالمنطقة الشرقية بالكونغو البلجيكى سابقاً .

البشرية . يالها من فكرة أن يلتهم المرء أباه . إنه يستحق ذلك . لقد كان عليه ألا يكون زنجيًّا حقيقة أن اليهود موضع اختبار (ما عساى أقول) إنهم يطاردون ، وربما يقتلون ويلقى بهم فى النيران ، ولكن كل ذلك مجرد قصص تروى عالميًّا . إن اليهودى غير محبوب منذ اللحظة التى ينكشف فيها أمره . ولكن الوضع معى غير ذلك بل ومغاير تماماً . فإنه لا يسمح له بأية فرصة . إن القرارات تفرض علىّ دون إرادتى – إننى لست عبداً لفكرة الآخرين عنى بل أنا عبد للوعى . ثم يضيف « قانون » قائلا : إذا كانت دراسات سارتر عن حياة الآخرين صحيحة (نذكر ذلك بالقياس إلى ما وصفه فى « المخلوق والعدم » من أن الضمير ملك للغير فإن تطبيق هذه الدراسات على الضمير الزنجى يكون خاطئاً . ذلك لأن الأبيض ليس المخلوق الآخر وإنما هو السيد الحقيقى أو الخيالى له .

اليهود الزنوج :

فى خضم هذا الأدب المعارض تظهر رواية من أعجب الروايات بإمضاء له وقع وتقييم اسم زنجى هى « لوبا جولا – قصة لأفريقى غير متحضر » فبالرغم من أنها تقدم على أنها قصة تاريخ حياة إنسان إلا أن الذى لا شك فيه أن الجزء الأكبر من هذه الرواية جاء عن طريق الخيال المذهل . ذلك لأن أفريقيا التى يضعها « لوباجولا » بالرغم من المراجع الجغرافية الدقيقة التى يرجع إليها ، فإن وصفه لأفريقيا غير مطابق للواقع . حتى أننا لنتساءل حقًّا عما إذا كان هذا المؤلف زنجيًّا حقيقة ذلك لأن جميع الاحتياطات التى اتخذت للبرهنة على ذلك وهى صورتان شمسيتان للكاتب وكذا صور وأختام جواز سفره وبطاقة خدمته العسكرية ، كانت كلها تثير الشك على النقيض . فالكثير من فقرات الكتاب لا يمكن تصديقها مطلقاً مثل الصلة الخرافية فى القيض على البطل ومرشده بواسطة الأقزام آكلى اللحوم البشرية الذين صنعوا من أمخاخ ضحيتهم نوعاً من « العصيدة – العجينة » بعد أن أذابوا جماجمهم – ومع ذلك فإن هذا الوصف لبعض العادات الفطرية البشعة ليس الهدف منها تجميد الحضارة الأوروبية عن طريق التناقض – ويدافع « لوبا جولا » حين تأتيه الفرص عن بعض العادات الأفريقية كعادة تعدد الزوجات – ثم هو يحكم على المجتمع الأوروبى دون أى تسامح فيقول : إنه تعلم الكذب والخبث فى أوروبا . كما تفضح فصول الكتاب التى تدور أحداثها فى أوروبا وأمريكا التفرقة العنصرية . ويوجه اللوم للغرب إذ جعل منه شخصاً موزعاً بين جنسين : الأبيض والأسود فهو ملفوظ من الأفريقيين ومن الأوروبيين على حد سواء . ولكن غرابة هذا الكتاب تكمن فى مجال آخر : إذ يؤكد أنه فرد من قبيلة يهودية سوداء هائمة

على وجهها فى أفريقيا الغربية على مسافة ستمائة ميل شمال مدينة « آبومى كلافى » التى كانت عاصمة داهومى (وهذا البيان خاطىء فإن العاصمة القديمة لملوك داهومى هى آبومى فقط . وأن آبومى كالافى موجودة فى داهومى حقًا ، ولكنها قرية صغيرة قريبة من البحيرات وتقع على شاطئ بحيرة كوتونو قريبة جدًا من الساحل ، بينما تقع آبومى على مسافة حوالى مائة كيلومتر داخل الأراضى وبعيدة عن البحر) . ويسرد « لوبا جولا » تاريخ قبيلته فيروى كيف أتت اليهودية إلى بلاده المجهولة فى وسط أفريقيا بعيداً جدًا جنوب تمبوكتو حيث الوثنية والوحشية ؟ ففى حوالى عشرين قرية يوجد ألفا قسم جميعهم من السود ويعتقدون أنهم من أصل يهودى ويطلقون على أنفسهم اسم « بنى افرايم » ويسميهم بقية السكان المحليين « ايمو بوكوايم » أو الشعب الغريب . ويملك شعب (بنى افرايم) نسخة من التوراة العبرية مكتوبة باللغة الأرامية فقد أحضروها معهم حين وصلوا هذه المنطقة منذ أكثر من ألف وثمانمائة عام .

وهى ليست مكتوبة بالمداد وإنما منقوشة على ورق البردى بواسطة الحديد المحمى (الأحمر) .

ومقدمة الكتاب ذاتها نموذج للحرج (فإن كاتب المقدمة الذى لم يشأ أن يفصح عن اسمه يعترف صراحة بأن مؤلف الكتاب استخدم الخيال والخديعة فى كثير من الأحوال) كما أن الكتاب يحتوى على بعض الاستشهاد من دائرة المعارف البريطانية ومن كتاب موريس فيشبرج الذى عنوانه « اليهود – دراسة تفصيلية » وهو عبارة عن تقصى وجود اليهود فى أفريقيا ، ويتعلق بعمليات إسكان الإسرائيليين شمال الصحراء الكبرى وكذا إسكانهم فى منطقة مزاب . ويهود أثيوبيا من قبائل « افلاشا » أو يهود ساحل لوانجو . وجالية اليهود الزنوج فى لوانجو مثل جالية اليهود فى ساوتومى تنحدر من سلالة أطفال يهود إسبانيين نقلوا إلى أفريقيا بعد أن أبعدوا بالقوة أيام محاكم التفتيش . وقد لجأ بعض اليهود الذين طردوا من إسبانيا إلى البرتغال حيث أرسلهم الملك جاك الثانى إلى أفريقيا ومنهم ألف طفل أرسلوا إلى جزيرة ساوتومى عام ١٤٩٣ . أما بالنسبة لقوم فلاشا فى أثيوبيا فإنهم يزعمون أنهم من سلالة (مينليك « ابن سليمان وملكة سبأ فإنهم لا يعتبرون أصلا من اليهود الشريط الشمالى من الصحراء الكبرى فإن كتاب تاريخ الفتاش يشير إلى وجود أقلية إسرائيلية عند منحنى نهر النيجر وكان « ازكيا محمد » أحد أباطرة سونراى قد أحضر بعض البساتين اليهود من بلاد المغرب لتحسين الإنتاج الزراعى . وتعرف أخيراً أنه من بين النظريات العديدة التى فرضها الباحثون لتوضيح أصل قبائل « البيل » أنهم ينتمون إلى الإسرائيليين . ينادى بهذا الرأى ويؤيده « دولافوس » ووفقًا لرأى هذا المؤلف تكون قبائل البيل من نسل يهودى أبعدوا من مصر بأمر أحد ملوك البطالسة فاتجهوا فى

أول الأمر إلى برقة ، ولكن الرومان اضطهدوهم فهاجروا إلى فزان ومن هناك ذهبوا إلى منقطة «أبير» ثم إلى منطقة ماسينا . غير أن معظم الباحثين الأخصائيين يعارضون هذه النظرية معارضة قاطعة ، ومع ذلك فإن «جرمين ديتران وهميات يا» قد كشفا بعض تلميحات إلى سليمان فى النصوص الدينية التى يتعامل بها قبوسة قبائل «البيل» وقد قام (روجيه مونى) «الأستاذ بجامعة السربون بضبط وتمحيص هذا الموضوع فى مقال له بعنوان «اليهودية واليهود وأفريقيا الغربية» .

وقد ظهر كتاب «لوباجولا» الذى يسرد فيه تاريخ حياته عام ١٩٣٠ فى لندن وترجم إلى اللغة الفرنسية ونشر فى باريس ١٩٣٢ تحت عنوان «لوبا جولا قصة متوحش أفريقى كتبها بنفسه» وسواء أكتب هذه القصة كاتب أسود أم لم يكتبها فإنها قصة لم يعشها مؤلفها بسبب أحداثها المثيرة التى هى من نسج الخيال . ومع ذلك فإنها ليست قصة مثيرة فحسب بل إن هذه القصة بما حوت من خيال ووصف لأفريقيا مشكوك فى صحته فى غالب الأحيان إلا أنها تعتبر دليلا ، فقد أراد الكاتب أن يجمع فى شخصية رمزية واحدة المصير النفسى لجنسين مضطهدين هما الزنوج واليهود [1] .

صورة الأوروبى :

ما هى الصورة التى يقدمها الكتاب الزنوج لقرائهم عن الأوروبى :-

إن هذه الصورة غالباً ما تكون كئيبة أو كاريكاتورية : فالمستعمرون سكارى وفاسدون ولا أمانة عندهم وفيهم شراسة وفى خلقهم عنف كرؤساء شرطة (مأمور) وفيهم دناءة وخسة أيضاً ، أما رؤساء الإدارات فقوم مزهوون بأنفسهم إلى حد إثارة السخرية ، بمثل هذه الصفات جرى وصفهم فى روايات «فرديناند ايونو – وجان مالونجا – وموبجويتى .

كما ظهر أيضا وصف الأوروبى الجذاب المحبوب فنجد «بيير» فى كتابه (بلادى شعبى الجميل) الذى يكتب لطمع الشركات الأوروبية الكبرى و «تارج» فى كتاب «كليميه» نراه فى ختام الكتاب يختمه بخطاب أنحوى – وكذا المدرس «سالفان» الذى يغضب على قومه لاحتقارهم السود وذلك فى كتاب «حياة خادم» وكذا المفتش العام فى التعليم الذى ينتزع «مابيكى» من أيدى الشرطة فى كتاب (قلب امرأة آرية) وفى كتاب الطالب الأسود للكاتب «آلك لوبا» فإن مدير الإدارة «بارج» هو الذى يحضر لينقذ البطل من الشقاء الذى يعانيه فى باريس . وعند الشيخ

(١) يؤكد فانون فى كتابه (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) حقيقة واضحة وهى : أن من يكره السامية يكره الزنوج .

«حاميد وكان» فى كتاب (المغامرة الغامضة) نجد أن المقصود هى عائلة راعى الكنيسة . وأخيراً نجد «ثوباب» هو الرجل الأبيض ذو الصفات الرقيقة القلبية وهى صفات فريدة فى نوعها - وهذا انضم إلى جانب المحاربين المشهورين فى فولكلور شعب «ماندانج» كما ينقله لنا المدير السابق للبالية الأفريقى «كيتا فوديبا» وهو الآن وزير فى غينيا - نقله لنا فى كتابه «أشعار أفريقية» .

أما بالنسبة إلى «أوليمب بيل كونيوم» فى كتابه بعنوان «الفخ الذى لا نهاية له» فقد أراد أن يجعل عرضه للشخص الأبيض متوازناً أى بين بين فإن المشرفين فى السجن (سجن داهومى) حيث يسجن بطل كتابه ، نرى أحدهما شفوق عادل وليس به عداوة عنصرية أما الثانى فمحدود التفكير سريع الغضب ويؤمن بالعنصرية يحتقر السود .

وكما فعل سيزير وسنغور يطرح الكاتب الروائى من قبيلة بيل «الشيخ حميدو كان» بعيداً عن قلبه الحقد الدفين على الرجل الأبيض مع أن هذا الحقد عاطفة دفينة فى قلبه .

وأما فرانز عانون الرجل الثورى الحقيقى والذى انضم إلى جانب جبهة التحرير الوطنية فقد سيطر على شعوره بالألم والضغينة فيقول فى كتابه «بشرة سوداء وأقنعه بيضاء» : ليس من حقى أنا الرجل الملون أن أتمنى وأن يتبلور الشعور بالذنب عند الرجل الأبيض تجاه الجنس الأسود وماضيه . كما أنه ليس من حقى أن أشغل بالى بالوسائل التى تمكننى من أن أطأ مواضع الفخر التى كانت للسيد القديم (الأبيض) كما أنه ليس من حقى ولا من واجبى بأن أطالب بالتعويض لأسلافى الذين استعبدوا» .

وبعيد إلى ذاكرتنا ما قاله فى خطابه عام ١٩٢٧ فى المؤتمر الدولى فى «جلاند» بسويسرا عن ختام قصة القمع الرهيب الذى قام به الجيش الفرنسى ضد ثورة «للطورق» وقد كتب هذا فى كتابه بعنوان «حشائش السافانا الحمراء» كتبها يقول : لقد فهمنا الآن أن الشر الذى قاست منه بلادنا لا يجب أن ينسب إلى فرنسا عامة بل إلى بعض الفرنسيين» .

واستشهد جاك هولت عن الصراع النفسى الذى يقوم فى نفس الشاعر نحو الرجل الأبيض ونحو الأجانب عامة الذين بذروا الفراغ . استشهد ببيتين من الشعر للشاعر «ميزان بوجيني» .

إذا ما حمل المرء حقداً فى نفسه
فليس من اليسير القضاء عليه

وحتى «مامادو جولوحو» وهو أحد المتطرفين فى عدائه للإدارة الفرنسية لم ينس مديح بعض الموظفين الاستعماريين ، فقد أطراهم إطراء حاراً وذلك فى قصته المحزنة والتى تتضمن تاريخ حياته . فقد مدح كلاً من ناظر مدرسة ولبام بوتى والذى رمز له بالحرفين ش . ب (ومن المحتمل أن يكون

شارل بيار) والطبيب الذى أسس مدرسة الطب فى دكار والذى يصفة الكاتب دون أن يذكر اسمه بأنه (خادم فرنسا الحقيقى فى أفريقيا).

ولقد كانت الحركة الوطنية فى بدايتها مهمتة بالتغلب على أحقادها. حتى أن الدكتور «أجريه» [1] وهو أحد الأوائل المثقفين الأفريقيين من المستعمرات البريطانية فى الساحل الذهبى وهو صاحب الرأى الملفت للنظر فى ضرورة التعاون بين الأجناس. فنراه يقول: فى الموسيقى فإنه لا يمكن استغناء الأبيض عن الأسود فى كتابة النوتة الموسيقية فالمثل يجب أن يتفق الأبيض والأسود معاً. ومهما بدت هذه الصيغة فى شكل ساذج فإنها غدت وأوحت كل الجيل الأول من الوطنية الأفريقية فى الغرب الأفريقى البريطانى بين الحربين العالميتين.

ولكن روح النقد الأفريقى لا تسير فى اتجاه واحد. فإن رواية «آك لويا» بعنوان الطالب الأسمر ترسم لوحة لا مبالغة فيها بل حقيقة لحياة الطلبة الأفريقيين.

كما أراد «فيلى دابوسيسكو» أن يحذر مواطنيه فى كتابه بعنوان «أقلام وصور» فقد كان هدف نقده هو الرجل المتطور المزيف مثل هذا البرجوازى النبيل الأسود. إن هذا الصنف من الناس منتشر جداً. إنه أمى تماماً فهو لا يعرف القراءة والكتابة، ومه ذلك فهو يفرض الاحترام عن طريق مشيته وهيئته. إنه مشترك فى جمعية حقوق الإنسان والمواطن. كما أنه مشترك فى الجريدة الرسمية بالمستعمرة أو فى الصحيفة المحلية التى يصدرها حزبه. ويحب أن يمدد على مقعده الطويل وأن يقرأ له أحد الناس هذه الصحيفة. لذلك هو يعلم الأخبار من المصادر العليا. فيعرف مثلاً هزم عبد الكريم وكيف انتصر حالاندودبوف على الأستاذ لامين جواى كما يعرف ماذا يضمره النجاشى فى نفسه لينتقم من موسوليني. كما أنه يتفعل لأن فرانكو على أبواب مدريد. ويعرف جميع النوايا التى يكنها السيد فانسان أوريول. وحين يكون منهمكاً فى عمل من الأعمال فإنه يدعو واحداً يحضر له معلوماته مباشرة من كتب القانون، فكثيراً ما يتشدق بالقانون وبحقوقه. وإن خطابا مكتوباً على الآله الكاتبة وصادراً عن نائب من النواب أو على جنرال أو حتى بطاقة شخصية للزيارة تثيره لدرجة يفقد كل ثباته. إنه يتجنس بالجنسية الفرنسية أو هو يعمل لكى يصبح كذلك متجنساً بها، وفى نظير ذلك فهو يضحى بكل ثروته كما أنه أصر على ألا تتزوج ابنته إلا من رجل مثقف. وهكذا يقضى حياته بين الطعام الجيد والفراش الوثير فى خيلاء حمقاء بعيدة كل البعد عن الثقافة.

ويندد «جوزيف أوونو» بتقاليد أفريقية قديمة ولو أنها أصبحت أكثر ضرراً فى هذه السنوات

(١) وهو أستاذ كومى نيكروما.

الأخيرة أكثر من ذى قبل . يندد بذلك فى كتابه «بعنوان العمة بيلا» وضمن هذه التقاليد مشكلة المهر «الصداق» فيقوم المؤلف بتحقيق مستفيض عن حالة المرأة كما يبحث أيضاً حياة العاهرات ثم يبحث النتائج الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن ارتفاع الصداق ارتفاعاً خيالياً . ثم يقص فى الجزء الثانى من الكتاب قصة البطلة التى صار اسمها عنواناً للكتاب وهى قصة حدثت من قبل عام ١٩١٤ لفتاة صغيرة وعد بالزواج منها زوجها حين كان عمرها سنتين فقط ، وحين مات هذا الزوج صارت كسلعة فى فراش أزواج متعددين الواحد بعد الآخر ، وهدف هذا الكتاب فى اختصار هو الدافع فى سبيل تحرير المرأة الأفريقية كما يهاجم التقاليد القديمة والعادات الحالية .

المدينة :

ظلت القصة والرواية «غير المنحازة» يحددها لدرجة كبيرة الموقف الاستعمارى . ومما يسترعى الإنتباه مسألة المدينة ، وهى الشيىء الذى أنشأه الأوروبى فى أفريقيا ، قد أصبحت الإطار الذى يدور خلاله الكثير من الروايات . فالمدينة بكل ما فيها من مسرات وإغراءات هى التى يكتشفها (كريم) بطل الرواية التى تحمل هذا الاسم والتى كتبها «عثمان سوسى» وهى تحكى أن «كريماً» هذا رجل مثقل بالديون بسبب أنه أراد أن يبهر عشيقاته . فهجر داكار وخلع رداءه الأوروبى لكى يرتدى زى بلاده التقليدى ليعود إلى قريته . والمدينة هى التى تنتزع من الفلاحة الصغيرة ميمونة خطيبها ، ورد ذلك فى كتاب «عبد واللاى ساديجى» .

إنها المدينة بما فيها وبمن فيها هى موضوع الرواية الأولى للكاتب النيجيرى «سيبريان ايكونيسكى» بعنوان «أهل المدينة» ويحكى فيها قصة محنة صحبى أفريقى شاب وسط خضم المدينة الزاخر الصاخب حين يبحث كثيراً وبدون جدوى عن مسكن يحس فيه الاستقرار البرجوازى الذى حالت دونه مغامراته الغرامية العديدة . كم هم محزن أن تعيش فى هذه المدينة الخانقة ، إنه وصف دقيق موفق لم يفته أن يصف الأكواخ والمساكن القذرة فى أحياء مدينة لاجوس . هذه المساكن المقامة من الصفائح والخيش ومع ذلك فهى ملتقى ساحر .

كما أن مدينة (تونجو) مختلفة تماماً وهى التى ورد وصفها فى رواية «مدينة باغية» للكاتب «مونجوبى» فهى مدينة كلها كفاح مرير وخداع . كما أن المدن التى ورد وصفها فى آخر مؤلفات «آموس توتولا» بعنوان سيمبا العفريت فى الغابة المظلمة . هذه المدن كانت ملتقى بالقسوة وهذه القصة تحكى قصة ابنة لامرأة غنية جداً تسمى سيمبا – وسيمبا هذه راقصة شهيرة معبودة الجماهير

ولكنها تريد أن تهجر موطنها حيث الأدغال المحدودة الأفق لكى تحس الفقر والعوز والعقاب . إنها تهجر الموطن الأصلى لها وترحل وأثناء ترحالها تمر بأماكن عجيبة حتى أنها نقلت بأعجوبة وبمعجزة من مخلوق مشوه يسكن الغابات وتدفع ثمناً لتزوجها كطفلة مدللة آلاف التجارب والاختيارات . . . والمدينتان اللتان قابلتهما فى طريقها كانتا لها أشد عداوة . . فى المدينة الأولى ترى رجالاً بأجسادها يقع ملونة بألوان مختلفة وأفكارهم خاطئة لدرجة جعلت «سيميا» تهرب منها حتى تنجو من الموت . وفى المدينة الثانية تتزوج سيميا من نجار ولكنها تضطر لتضحى بطفلها الحديث الولادة فى سبيل ظمأ أحد الآلهة الذى لا يرحم (إن النبذة الخاصة بالمدينة التى سكانها متعددو الألوان هى رمز أو تلميح للسياسة النادرة فى مؤلفات الكاتب النيجيرى هذا .

وهكذا أصبحت المدينة رمزاً فى الأدب الأفريقى ، فهو رمز للاحتكاك والاتصال بالغرب بعيوبه وجاذبيته . وان الصدمة التى نشأت عن غزو الحضارة الأوروبية للمجتمع القبائلى فى أفريقيا قد اتناولها الكتاب بطريقة قاطعة محددة . وقد نجح الكثير منهم فى أن يجعلوا منها موضوعاً جيداً لرواياتهم . فنرى أولا الكاتب النيجيرى «سينوا آشيبى» فى كتابه «أشياء تقع من جانبنا» فهو عبارة عن قصة انهيار الغباء الاجتماعى فى قرية «ايبو» تحت وطاة ضغط الحكام المستعمرين والمبشرين .

وكذا انتحار البطل «اكونكوو» بعد أن شارك فى إحراق مدرسة للمبشرين وبعد أن قتل بيديه أحد مندوبى الإدارة البريطانية . هذا الإنتحار هو بمثابة اعتراف منه بعجزه عن إيقاف عجلة التاريخ كما أنه رمز لآخر حركة تمرد قام بها ضد نظام الحكم الجديد . إذ أنه يفضل الموت على قبول ذلك النظام .

والرواية الثانية لهذا الكاتب بعنوان «لا سبيل للراحة بعد» هى قصة فشل . . فشل حفيد «أوكونكوو» التى تقف فى سبيله آلاف الصعاب . فهو شاب أفريقى مثقف نال عديداً من الشهادات العلمية يريد أن يتزوج من أفريقية دون مستواه ، ولكن عائلته تعترض على هذا الزواج متعللة بأن هذه الزيجة غير المتكافئة ستجلب عليه العار .

وفى كتاب «غضب الأسلاف» يقص الكاتب «ارشيبالد حوردان» من جنوب أفريقيا قضية رئيس من رؤساء القبائل التقليديين . هذا الرئيس متطور بعض الشىء – فالكاتب يحكى قصته قصة زوجته وكيف أنها يريدان إدخال الحضارة إلى القبيلة ولكن مشروعها يلقى مصيراً مؤلماً .

وهكذا نرى أن القصص والروايات والشعر الأفريقى كانت كلها فى طليعة المعركة السياسية وكان الاقتناع بذلك قويًّا لدرجة أن مجلة «الوجود الأفريقى» هاجمت الكاتب «كامار لاى» مرتين لأنها

ترى أن رواياته لا تلتئم ومفهوم الكفاح ضد الاستعمار . وقد كتب المعلق فى مجلة « الوجود الأفريقى » يقول :

فيما يخص كتاب « الطفل الأسود » فإن « لاى » كان يكتب وقد أغلق عينيه عن عمد عن رؤية الحقائق المؤلمة التى عنوا دائماً بعدم الإفصاح عنها وعرضها على الجمهور . فهذا الكاتب الغنى وهو مثل أسود ورفيق فى الصغر وكنا نعلم عنه أنه قوى الملاحظة متيقظ دائماً لم يلاحظ شيئاً سوى أن أفريقيا هادئة وجميلة كأم كلها أمومة ؟ ؟ وهل يمكن أنه لم يشاهد مطلقا أى عمل جائر ولو لمرة واحدة صدر عن الأداة الاستعمارية . ؟

ولم تكن مجلة الوجود الأفريقى أقل جدية فى ملاحظاتها على كتاب « فطرة الملك » فقد نقد الكاتب طريقة إهداء الكتاب للمندوب السامى لجمهورية أفريقيا الغربية الفرنسية وندد بذلك فقد رأى أن مجرد الإهداء عمل يثير السخرية ولو أنها خطأ بسيط . ثم استرسل الناقد فى نقده : مهما فعل كامارا ومهما غضب ، فإن مؤلفاته لن تستطيع أبداً أن تجد لنفسها مكاناً خيراً من أعلى رف من رفوف الأدب الكريه المنبوذ وأن هذه المكانة لأدبه يفهمها جيداً جميع النقاد المحترفين الذين يتملقونه وكأنه مراهق شاب . اعترافاً منهم بجميله وصنيعه لهم ، لأنه هو الذى يرشدهم إلى الوسائل السرية الرهيبة ليتقربوا من أصحاب السطوة (من المستعمرين) ويسمح لهم بأن يرصدوا عيونهم المتطفلة على ثقوب الأبواب للأكواخ ليتجسسوا على ساكنيها من الزنوج غير الموالين للحضارة والمدنية الأوروبية ومهما كان الحديث والوصف (من جانب هؤلاء النقاد) فإنه لا يكفى لتفسير سبب مجاملة هؤلاء النقاد المليئة بالريبة . يقول بول سارتر فى مقال له : إن الأفكار الجديدة لا ترضى الناس وربما صدمتهم . فإذا كان « كامارا لاى » ينال الرضى وتحوز كتاباته الإعجاب فى سهولة ، فذلك لأنه لم يأت بجديد حقًّا . وإذاً فإنه يجب أن يوضع فى زمرة الكتاب المهتمين الذين كثيراً ما تحدثنا عنهم فى صراحة تامة . فهو إذاً ليس أول كاتب لا يتنازل عن حقه وربما سيكون لديه الطابع والعبقرية الكافية ليفرض نفسه بالرغم من تضافر الظروف المضادة له .

سارتر ومقال « إله الموسيقى الأسود » :

من خلال هذين المقالين يتضح تعريف الأدب الأفريقى وما يجب أن يكون عليه . ويرى سارتر أن هذا هو معنى شعر الحركة الفكرية الوطنية فى أفريقيا . وكان هذا المعنى هو صيحة الثورة لطبقة المعدمين الكادحين السود .

يكتب مؤلف «إله الموسيقى الأسود» مقاله قائلاً : ليس من قبيل المصادفة أن يكون شعراء الحركة الوطنية والفكرية الأفريقيون المتحمسون هم أنفسهم المجاهدين والمكافحون من أجل الماركسية (على أنه من الملائم أن نلاحظ أن غالبية الشعراء السود – الذين يعنى سارتر بدراستهم ودراسة مؤلفاتهم – من جزر الأنتيل أو ماهيتى . وأن كتاب «مختارات من الشعر الزنجى والملاجاشى» للكاتب سنفور الذى اتخذه سارتر مقدمة لمقاله لا يشتمل إلا على ثلاثة شعراء أفريقيين فقط من غير شعراء الملاجاش هم : سنفور بيراجودبوب – دافيد دبوب . فإذا ما راعينا ذلك علمنا مدى التأثير الضخم الذى آثره كل من سيزير وداماس منذ عام ١٩٤٨ وهو تاريخ نشر كتاب المختارات هذا لسنفور عن الشعر الأفريقى) .

ويبين سارتر أولاً أن سريالية شعراء جزر الأنتيل فى ميدان الحركة الفكرية والوطنية كانت أقوى أداة كفاح ويعيد رأى سنفور عن مجلة «الدفاع المشروع» التى أسسها «اتين ليرو» وبعض المثقفين الآخرين من جزر الأنتيل قبل الحرب بقليل . يقول سنفور : إنها أكثر من مجلة ، فقد كانت حركة ثقافية ، بدأ محورها بالتحليل الماركسى لمجتمع جزر الأنتيل وغيرها . واكتشف أن ساكن الأنتيل من سلالة عبيد من الزنوج الذين ظلوا طوال مدة ثلاثة قرون فى ظروف معدمين وكادحين فجعلت منهم شعباً غنياً ، ثم أكد أن السريالية وحدها تستطيع أن تنقذه من كل ما حرم عليه كما أنها قادرة على جعله يعبر عن شخصيته كاملة .

ويكشف سارتر (مؤلف إله الموسيقى الأسود) عن الهوة السحيقة التى تفصل بين السريالية البيضاء وبين الإنسان الأسود الثورى حين يستخدم هذه السريالية ، فضرب لذلك مثلاً شعر سيزير فيقول سارتر : إن ابتكار سيزير كان فى طريقه أن جعل كل همه فى إبراز اهتمامه بكونه زنجياً مضطهداً ومجاهداً فى شعره القوى الهادم للأوضاع القديمة والذى يتميز بالكثير من الحرية والأكثر روحانية فى الوقت الذى فشل فيه كل من «الوارد وأراجون» من أن يعطيا فى شعرهما العنصر السياسى .

ويصف سارتر فى كلماته الآتية المجال الذى يظهر فيه شخصية الشاعر الزنجى وكأنه معدم ، فهو يقول : يتحول الجنس البشرى إلى جزء من التاريخ . لقد كان الإنسان الأسود منذ لحظات يطالب بمكانته تحت الشمس باسم الإنسانية وصفاتها البشرية . والآن فإنه يبنى حقه فى الحياة على ما يقوم به من مهام يرى أنه مكلف بها . هذه المهمة مثل مهمة الطبقة المعدمة الكادحة التى تأتيه من موقفه التاريخى . ذلك لأنه قاسى أكثر من الآخرين حين ثار ليعبر عن معنى الحرية .

مونتو – الناس والأسلاف والآلهة

يعطى الكاتب « جان هاينشنن » أهمية بتعريف معايير لا تمت إلى السياسة ولكنها تتعلق بالحركة الفكرية الوطنية الزنجية ، مع أنه لم يجهل مدى ميل وإنحياز الشعراء والكتاب الروائيين السود . ويجد « جاهن » هذه المعايير فى المفهوم الفلسفى للعالم الأفريقى التى تظل حسب رأيه المواد التى حواها الشعر والرواية الزنجية الخالصة – لذلك يجد هذا الكاتب نفسه مضطرًا لإعادة بناء فلسفة قبائل البانتو المعتقدات الأفريقية الموروثة عن الأجداد كما يعرضها مختلف الكتاب الأوربيين والأفريقيين . فنرى نيافة الأب « بلاسيد تمبلز » يدرس فى كتابه (فلسفة شعب بانتو) نظام علم الكائنات وحقيقتها عند قبائل بالوبا فى الكنغو البلجيكى ، كما يدرس « مارسيل جريول » فى كتاب « إله الماء » علم تكون العالم عند قبائل دوجون بالسودان ، ويدرس القس الكسيس كاجام فى رسالته عن فلسفة شعب بانتو فى رواندى يدرس الكاثن الحى فى رسالته التى قدمها إلى جامعة جريجورى فى روما . وبعد أن يستخلص جاهن خطوط القوى فى هذا المنهج الفلسفى الزنجى الذى تشترك فيه أفريقيا كلها والذى لا تزال بقاياه تجعل العبادات « فادو » تحت شعار المسيحى (وهذه العبارات عبارة عن آلهة كثيرة ، منها الله والثعبان ويقوم بطقوسها السحرة فى جزيرة هايتى . ويلاحظ الكاتب بعد ذلك آثار تلك الفلسفات فى مؤلفات الكتاب السود المعاصرين ليجعل منها حجر الزاوية فى الثقافة الجديدة . وأول حجر زاوية منا هو الاعتقاد بأن الموتى والأحياء ينتمون إلى نفس المخلوقات (فيقول كاجام إن كلمة Muntu تعنى الناس والأسلاف والآلهة) إذ تدور بينهم اتصالات مستمرة تسمح لهم بأن يتبادلوا تلك القطع الصغيرة من القوة الحيوية » التى يجعل منها الكاتب تمبلز حجر الزاوية لفلسفة قبائل بالوبا ، ويجد جاهن أصداء هذا الاعتقاد عند الكاتب ببراجود بوب فى قصيدته « أرواح » التى يردد فيها العبارة بأن (الأموات لم يموتوا) وعند الكاتب أموسى توتولا فى كتابه (محمور الأدغال) نرى بطل هذا الكتاب يسافر من أجل البحث عن الذى أساء إليه - إنه يسافر طويلاً إلى بلاد الموتى . وعند سنفور فإنه يطلب (من الموتى الذين رفضوا أن يموتوا أن يحموا أسطح مبانى باريس .

وهناك عنصر ثان أساسى وهو المفهوم الفريق عن الكون . فنجد أن الكاتب كاجام يرى أن كل المخلوقات من إنسان وأشياء هى عبارة عن قوى بينها قرابة وتشترك كلها فيما يسمى ntu وهو

الكائن فى حد ذاته أو القوة الكونية العامة ، كما أن هذا الاعتقاد فى التماسك الوثيق فى تكوين الكون والذى يسمح للشاعر الأفريقى أن يتعرف على نفسه فى الطبيعة الفسيحة ، ويكشف جاهن عن هذه الفكرة عند سنغور حينما كتب هذا الشاعر السنغالى قائلاً :

(ها قد عادت أيام القدماء ، عادت الوحدة وعاد الصلح والوئام بين الأسد والثور والشجرة)

ويظهر ذلك فى وضوح تام فى قصيدة « حتى يفقد الجسد » للشاعر سيزير فيقول :

حتى أفقد نفسى وأهوى
فى ذرات طين حى لأرض مفتوحة لا حدود لها
حينئذ أتصور الحياة تغمرنى كلية فأشعر بها
تتحسسنى أو تعضنى

وهناك حجر زاوية أخير وهو الاعتقاد فى قوة السحر التى يشبهها جاهن بمفهوم مماثل فى علم تكون العدىم عند شعب دوجون المسمى Nommo أو فى عبارة عن (الكلام والماء والنطفة والدم) عند « اوجتمبلى » الحكيم الذى سأله مارسيل جربول — فوفقاً للميتامبريقا الأفريقية كما يعرضها جاهن نراه يقول : إن أى تحول وأى خلق وأى تناسل يتم بواسطة الفعل وهو أيضاً القوة الحيوية التى يتصرف فيها فقط المنتو Muntu (الإنسان والآلهة والأسلاف) فالفعل مطلق السلطان فى أفريقيا كما يقول سنغور والإنسان هو سيد الفعل .

ويكتب جاهن قائلاً : إن الاعتقاد الراسخ الذى لا يتزعزع بأن كل شئ بما فيه الشاعر نفسه يمكن أن يتحول بقوة مفهوم النومو التى تسيطر على فتى نورى كسيزير وعلى السخرية العميقة عند كاتب مثل توتولا . كما يرى جاهن أن صيحة الزنجى الكبرى للشاعر سيزير التى ستهز أسس العالم ليست سوى ذكرى للاعتقاد الأفريقى القديم الموروث عن استطاعة الإنسان أن يتضرع إلى قوى الطبيعة كى تحطم العالم الاستعمارى وهو الأمر الذى يهمه قبل كل شئ ، ومن جهة أخرى فإن مفهوم نومو هذا قريب جداً من مفهوم الفعل والعمل الذى جاء فى التوراة .

ويختتم جاهن حديثه مؤكداً بأنه لا يكفى بأن يكون الإنسان أسود وثائراً حتى يساهم فى الثقافة الأفريقية الجديدة . وقد جاء هذا المعنى فى مؤلفات (رتشارد رايت) الذى أعلن فى كتابه (القوة السوداء) حين كتب عن غانا فقد قال : لقد كنت أسود كما كانوا هم أيضاً سوداً ولكن هذا لم يساعدنى قط مرة واحدة ، فهل تعد مؤلفات هذا الكاتب من الأدب الأمريكى ؟ ولكن حين تعبر المؤلفات عن طريقة التفكير الأفريقى المحض وأنه تستمد علوماتها عن مصادر الفكر والمفهوم

الأفريقى فى العالم فإن هذه المؤلفات تعتبر حينئذ مؤلفات زنجية .

ولهذه الأسباب نفسها يناضل جاهن فكرة ضم السعراء الرياليين واعتبارهم أمتداداً لشعراء الحركة الفكرية والوطنية فى أفريقيا . وقد رأى مؤلف كتاب « مونتو » هذا الرأى فيقول : إنه بينما يستسلم الشاعر السريالى لقوة الكلمات ويدعها تستحوذ عليه ويهابها فى رجفة لا واعية . . يظل الشاعر الأفريقى سيد الكلمة مسيطراً عليها بل ويعطيها كامل السلطة على الحياة المادية » ومن ناحية أخرى يرى « جاهن » أن المفهوم الأفريقى عن الفن يختلف فى جوهره عن المفهوم الغربى . فالتفن وفق المفهوم الأفريقى يخدم الطوائف والبيئة وهو اجتماعى وله وظيفة هى النفع ، ولكنه عند الأوروبى فن للفرد ، أى أنه أنانى ويهتم بالجمال فقط ، أى أن الفن للفن . وعلى ذلك فقد تناول الفنانون والمثقفون والكتاب الأفريقيون هذا الموضوع بالشرح المستفيض ومنهم الكاتب « بكارى تراورى » الذى جعل منه موضوعاً للكتابة عن المسرح الزنجى الأفريقى .

سيكوتورى وديمقراطية الجماعة والثقافة :

لقد كانت هذه الفكرة عزيزة على رجال السياسة . فقد تناولها سيكوتورى فى خطابه الموجه إلى المؤتمر الثانى للكتاب والفنانين الزنوج . وقد تناول هذه المشكلة رئيس جمهورية غينيا من وجهة نظره كرجل الدولة . ثم من وجهة نظر الزعيم السياسى الذى يعتبر ممثلاً لثقافة معينة .

يقول سيكوتورى فى خطابه هذا : إن أفريقيا ديموقراطية جماعية بصفة خاصة . فالحياة الجماعية والتضامن الاجتماعى يصبغان عاداتها بصبغة من الإنسانية يحسدها عليها الكثير من الشعوب . ولهذه الصفة الإنسانية لا يمكن للفرد فى أفريقيا أن يتخيل تنظيماً لحياته بعيداً عن حياة المجتمع العائلى القروى أو عن حياة العشائر . إن صوت الشعوب الأفريقية لا وجه له ولا اسم له . وقد خلا من الفردية ، ولكن فى الأوساط التى أفسدها الاستعمار . . . من منا لم يلاحظ تفشى الأنانية والفردية فيها (تلك الأوساط) ومن منا لم يسمع الدفاع عن نظرية الفن للفن وعن نظرية الشعر للشعر ونظرية الدفاع عن مبدأ دفاع كل فرد عن نفسه واهتمامه بها – هذا بينما أن فنانينا المهولين يثيرون دهشة العالم . وأن الناس فى كل مكان يطلبون رقصاتنا وموسيقانا وأغانينا والتماثيل الصغيرة التى نصنعها حتى يعرفوا معناها الدفين العميق .

يظن بعض مثقفينا من الشباب أنه يكفى للإنسان أن يعرف (برفير – ريمبود – بيكاسو أو رينوار) حتى يصير مثقفاً وحتى يستطيع أن يسمو بثقافتنا وبأدبنا وبشخصيتنا . إن هؤلاء لا يقدرون

سوى المظهر ولا يحكون إلا من خلال عقليتهم كمستعبدين . فهم يرون أن أغانينا الشعبية ليس لها قيمة إلا إذا اندمجت إلى حد ما وانسجمت بالأسلوب الغربي الغريب قطعاً عن معناها الاجتماعي . فهم يريدون أن يكون رسمنا كلاسيكيًّا أكثر وأن تكون أقنعتنا وتماثيلنا معلقة بالجمال فقط دون أن يعلموا أن الفن الأفريقي هو فن اجتماعي قبل كل شيء ، ويهدف إلى المنفعة ، إن قدرات المثقفين أو الفنانين والمفكرين والباحثين لا قيمة لها إلا إذا ساهمت بطريقة فعالة في حياة الشعب واندمجت في العمل والفكر والأماني الشعبية اندماجاً سياسيًّا .

وهكذا يرى رئيس جمهورية غينيا أن الفن الأفريقي يجب أن يكون أولاً فن مجاهداً مكافحاً ، ومن ثم فإن هذا الفن سيعرف خصائصه التي كان عليها في المجتمع القبائلي . ولكن يكون الفن للفن حقًّا في حياة أفريقيا الجديدة .

قضية الحركة الفكرية الوطنية الزنجية :

ابتداء من هذا التحليل لدور الفن الأفريقي قام اثنان من الكتاب السود (فرانز فانون وازاكيل مفالبل) وهما من الوطنيين المتحمسين ، قاما بمعارضة الرأي العام وقد وجها اتهاماً صريحاً للحركة الوطنية الفكرية الزنجية .

ويفهم فانون ويؤيد إلى حد معين رد فعل المثقف الأفريقي المستعبد الذي يبحث عن قيم جنسه وعن وسيلة للدفاع ضد التشبه بالأوروبي وعن الأسباب التي تجعله يرفض مبدأ سمو ثقافة الأجنبي المستعمر عن طريق العودة إلى مصادر قيمة جنسه . كما يرى فانون أن مثل هذا الشخص يبذل مجهوداً يائساً لكي يعيد الصلة بالشعب وبين القوى الحيوية لدى الشعب التي سبق أن فقدها . ولكنه يؤكد مع ذلك أن هذا لا يمنع من أن تكون هذه العودة إلى مصادر القيم ، هذه عودة وطنية بصفة خاصة ويستطرد مؤلف كتاب « الملعونون في الأرض » في فكرته فيقول : إن هذا الالتزام التاريخي الذي وضع رجال الثقافة الوطنية الأفريقيين أنفسهم فيه بأن جعلوا مطالبهم تتعلق بالعنصر البشري ويتحدثون كثيراً عن الثقافة الأفريقية وعن الثقافة الوطنية ، فهذا الوضع سيقودهم حتماً إلى طريق مغلق . كما أن فانون يقول حقيقة أن زنوج أمريكا وزنوج أفريقيا عليهم أن يحاربوا معاً احتقار البيض الذين اعتادوا أن يضعوا كل الزنوج في نفس المرتبة ولكن زنوج أمريكا لاحظوا تدريجيًّا أن المشاكل المتعلقة بهم وبوجودهم لم تكن نفس المشاكل التي تواجه زنوج أفريقيا .

ويستدل فانون على رأيه هذا فيذكر أنه في نهاية المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود المنعقد في

روما سنة ١٩٥٩ لاحظ بعض الزنوج الأمريكيين أن «المشاكل الموضوعية كانت غير متجانسة أساساً ، لهذا قرروا إنشاء جمعية أمريكية للمثقفين السود غير جمعية الثقافة الأفريقية التى أسسها «البون ديوب» وأصدقاؤه بعد المؤتمر الأول .

ويصرح فانون مؤكداً أن مرحلة الحركة الفكرية الوطنية الزنجية مرحلة ضرورية للمثقف المستعمر وإلا أصبح شخصاً لا وطن له ولا أرض له . ولكن إذا كان هذا الإجراء صل فى الناحية السياسية إلى مستوى غير مألوف فإن المثقف كثيراً ما يجد نفسه يسير فى طريق مقفل من ناحية كيانه ووجوده . وحين يصل إلى ذروة تفاعله مع شعبه مهما يكن هذا الشعب - فإن المثقف لا يلبث أن يقرر العودة إلى طريق الواقع اليومى ، ولا يبقى له من مغامراته إلا بعض الصيغ غير المثمرة ، فهو يميز العادات والتقاليد والمظاهر ولا ينجم عن محبة الماضى وعن هذا الجهد الجبار سوى بحث تافه لما هو غير مألوف . وبدلاً من الحركة الفكرية الوطنية الزنجية وبالرغم من فضائلها خاصاً بإزالة الاستعمار الثقافى ، فإن فانون يقترح أدباً يندمج بطريق مباشر مع الكفاح الثورى . ويقدم لذلك مثلاً هو قصيدة الشاعر «كيتا فوديبا» التى عنوانها «الفجر الأفريقى» والتى تحكى قصة جندى سنغالى من حملة البنادق الرشاشة يحصل على وسام لسلوكه فى الميدان إبان الحرب العالمية الثانية ثم يقتل بعد ذلك أثناء عودته لأفريقيا عندما فتح حادث «تياروى» .

وفى نهاية الفصل الخاص «بالثقافة الوطنية» والذى أوردنا منه الفقرات السابقة يهاجم فانون فى عنف «ايمنجارا» وسنغور ، ذلك لأن حكومتى ملاجاش والسنغال لم تصوتا فى صالح ما كانت تتمناه الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية خلال مناقشات هيئة الأمم المتحدة للمشكلة الجزائرية . ولهذا فإن المؤلف لكتاب «الملعونين فى الأرض» يعتبر هذا الحادث تصويراً مؤسفاً لمدى الغرور الذى طغى على الحركة الوطنية الفكرية الزنجية[1] .

وقد أبرز فانون الفارق الكبير بين الأحداث الملموسة التى تفرض على الزنوج الأمريكيين وعلى الزنوج الأفريقيين وظروف كل من الفئتين من الزنوج لكى يقلل من دور الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية . وعلى فكرة مماثلة يرتكز «صرفيل مغاليك» إلا أن ذلك على صعيد القارة السوداء كلها . فيعبر عن تشككه فى فاعلية النية الثقافية الأفريقية فى أن تكون وسيلة لحل المشاكل الأفريقية فى مجموعها . ويهتم «صرفيل» أولاً بإظهار أن القرائن السياسية الأفريقية ليست واحدة ، فيرى أنه من

(١) نجد الكثير من قصائد رايمينجار فى كتاب «المختارات» لسنغور وكان رامينجار فى ذلك الوقت وزيراً فى حكومة ملاجاش .

الملائم أن نفرق أساساً بين المناطق الأفريقية التى أقام فيها المستعمرون البيض (أيضاً التجار الهنود) بعدد كبير . والمناطق التى لا يمثل فيها السكان البيض إلا نسبة ضئيلة أو بين أجزاء أفريقيا التى يكون فيها مجتمع متعدد الأجناس . ومن المناطق التى ظل يسكنها السود بطريقة تكاد تكون مطلقة ، أى أنه يجب أن نفرق بطريقة ملموسة بين كينيا وجنوب روديسيا واتحاد جنوب أفريقيا من ناحية وبين باقى أجزاء القارة السوداء من ناحية أخرى .

ويرى «جزقيل مفاليك» أن موقف الكاتب والفنان الأفريق فى هاتين المنطقتين من أفريقيا يختلف من أساسه ، وبعد أن يذكر أشعاراً لسنغور وداماس وجاك رومان حيث يعبر فيها الشعراء عن حنينهم لأفريقيا أرض الأجداد . يقدم المؤلف مشكلة الحركة الفكرية الوطنية الزنجية فى أفريقيا بقوله : إن أكبر جزء من شعرهم رومانتيكى صرف ، وكثيراً ما يكون لا وسامة فيه ، ضحل ويشعر بالتوقف . فقد عنيت مجلة الوجود الأفريق أكثر ما عنيت بالبحث فى علم نشاط الشعوب لدرجة أنها لم تعر التفاتاً لمشاكل الفنان بطريقة عملية . فهذا الذى أزعجنى وأقلقنى كثيراً أن تكون مؤسسة مفيدة كهذه المجلة لا يبدو عليها أنها قد وعت وأدركت التيارات المضادة التى يتسم بها التعبير الفنى فى المجتمعات المتعددة الأجناس . وأن محرريها وقد يبدو عليهم أنهم يعتقدون أن الثقافة الوحيدة ذات القيمة والجديرة بأن تمجد هى الثقافة التقليدية الموروثة والوطنية . وهكذا كانوا يركزون همهم على بلاد لم يظهر فيها تفاعل تيارات المفكرين السود والبيض بشكل واضح وبمعنى صريح . فهم لم يتناولوا مجرد الأسس الثقافية حتى ولو تناولاً سطحيا - وكان الكثير من هؤلاء المتحمسين يذهبون فى حماسهم حتى لدرجة الاعتذار عن العناصر القريبة التى تبدو فى مؤلفاتهم وأعمالهم الفنية . من أجل هذا توقفت بباريس فى طريق عودتى من إنجلترا إلى نيجيريا عام ١٩٥٩ لأتبادل بعض الأراء والأفكار مع القائمين على شئون هذه المجلة (الوجود الأفريق) لكى تثبت وجودنا فيها نحن الذين ابتعدنا كثيراً عن الحياة القبلية والذين تنتج فنًّا كادحاً (فى المعدمين الكادحين) ترى هل جمعية الثقافة الأفريقية ليس بها مكان لنا . ؟ هذا ما أردت معرفته . ويتابع مؤلف كتاب «صورة أفريقية» حديثه قائلاً : خلال حديثى مع توماس دبوب ورايمنجارا وبول نيجر حاولت تفهيمهم مشكلة الثقافة فى المجتمعات المتعددة الأجناس وأنها مجتمعات مثل مجتمعات جنوب أفريقيا . فلقد اتخذت موسيقانا الكورال والجاز وأدبنا ورقصاتنا فى أفريقيا الجنوبية طرازاً مميزاً يبين بوضوح اندماج الثقافات وأننا لا نخجل من ذلك مطلقاً . فرد على رايمينجارا بأنه لا يجب أن يكون اندماج للثقافات مالم نحصل على الاستقلال مع أن كتابنا الذين يكتبون باللغة الوطنية وباللغة الإنجليزية

بدأوا إنتاجهم الفنى من عام ١٨٧٠ تقريباً أى قبل أن تكون المقاومة السياسية فى عام ١٩١٢ بوقت طويل .

ولقد فضح «حزقيل فاليلى» بدوره الفن الأجنبى الذى قد تؤول إليه الحركة الوطنية الزنجية (تماماً مثل ما فعل فانون) فراه يتصدى لرواية الكاتب «وليم كانتون» من سيراليون والتى عنوانها «الأفريق» ويعترف هذا الكاتب» من جنوب أفريقيا بأن هذا الكتاب مكتوب بطريقة جيدة وأفكاره غاية فى العناية ، فهو يكشف عن إحساس عميق ولكنه يعتبر مثيراً جداً للطريقة التى تسمح للشعارات السياسية إذا ما تحولت لتكون قاعدة للفن فإنها تهدم وتحطم العمل الفنى . فيضيع كتتون وفنه فى مديح الحياة الأفريقية ويطنب فيها ويقدمها إلى القارئ الأجنبى وكأنه يقدم كشفاً جديداً ويعيد ويكرر بطل قصته فى أنه يرى فى نفسه الإنسان الأفريقى . كما نجد فى الرواية الطهر والبراءة الأفريقية وكذا الأقدام العارية «الحفاه» وفتاه تعرض جسمها للمطهر وهى تضحك .

ويقول مغاليلى «هذا : إنها صور قديمة بشعة تعودنا أن نلصقها بملاحظات الأوروبى الذى يفد إلى أفريقيا . كما أن الكثير من الاختبارات التى يمر بها بطل الرواية يهدف اكتشاف وطنه أفريقيا للمرة الثانية ، ولكى يظهر الشخصية الأفريقية إنما هى اختبارات مصطنعة والتى من شأنها إفساد عمل المؤلف – ترى لزاماً أن يعود الأفريقى المثقف من الخارج ليعاود استعمارنا ؟ وهل من اللازم عليه أن يسير وقد فغرفاه دهشة وإعجاباً بجمال المرأة الأفريقية بإحساس الرجل الأسود . . إن كل ذلك ينكأ الجرح أكثر وأكثر . . .

كما يقول مغاليلى : إن الحركة الوطنية الفكرية الزنجية لم تنشأ مصادفة عند كتاب المستعمرات الفرنسية حيث أجبروا على نظرية التشابه الثقافى أو عند كتاب المستعمرات البريطانية حيث تمارس السلطة غير المباشرة .

ومع ذلك فليس حكم مغاليلى مع الحركة الوطنية الزنجية حكماً سلبيًّا كلية . . فهو يعترف أنه يجب علينا أن نحافظ على بعض قيم الثقافة الأفريقية الموروثة عن الأجداد وأنه إذا كان ينكر الفائدة الناجمة عن البحث عن الشخصية الأفريقية كشعار سياسى فإنه يسلم بسلامة أسس هذه الشخصية من الناحية الفنية على شريطة ألا نجعل منها عقيدة مطلقة – فإذا ما بحث الفنان الأسود عن شخصية فسيجدها قطعاً أفريقية صرفة . أما إذا كان هذا البحث ليس سوى بحث لوضع معين فإن فنه سيقاسى كثيراً من ذلك الوضع . هذا ملخص لرأى مؤلف كتاب «صورة أفريقية» فهو يضيف أيضاً قائلاً : – إنى لا أستطيع أن أفكر فى مستقبل بلادى دون أن يكون الأوروبى موجوداً بها رغب فى

ذلك أو لم يرغب . فقد استوعبت الكثير من الأشياء الناقصة فى الثقافة الغربية مثل موسيقاها وأدبها ومسرحها لدرجة أنى لا أستطيع أن أتخلى عنها .

ومن المناسب أن نذكر كيف أن مواقف مغاليلى السياسية تتفق مع آرائه فى الناحية الثقافية . فإذا كان هذا الكاتب الجنوبى أفريقى قد كشف مخازى نظام الحكم المبنى على التفرقة العنصرية (لقد طرد من بلاده عام ١٩٥٧ لأنه احتج على قانون التعليم الخاص بقبائل النيتو الذى كان يلغى الجامعات المشتركة) ومع ذلك فإنه كان يأمل فى مجتمع متعدد الأجناس على أن تتحقق فيه المساواة ولا تضطهد فيه أية أقلية عنصرية . ويسوق مغاليلى آراءه ومعتقداته فى أسلوب مهذب وفى ألفاظ منتقاة فنراه يقول : إذا كانت القومية تتعارض مع القبلية فإنى حينئذ قومى . أما إذا كان هدف القومى فى المجتمع المتعدد الأجناس هو استبدال الديكتاتورية البيضاء بفاشية سوداء أى أن يستبدل مثلاً قبلية شعب البوير بوطنية متأججة الحماس للقتال لتحقيق هذا الصنف من الوطنية فإنى لا أوافق على ذلك .

ومن المناسب أن نذكر كيف أن مواقف مغاليلى السياسية تتفق مع آرائه فى الناحية الثقافية . فإذا كان هذا الكاتب الجنوبى أفريقى قد كشف مخازى نظام الحكم المبنى على التفرقة العنصرية (لقد طرد من بلاده عام ١٩٥٧ لأنه احتج على قانون التعليم الخاص بقبائل النيتو الذى كان يلغى الجامعات المشتركة) ومع ذلك فإنه كان يأمل فى مجتمع متعدد الأجناس على أن تتحقق فيه المساواة ولا تضطهد فيه أية أقلية عنصرية . ويسوق مغاليلى آراءه ومعتقداته فى أسلوب مهذب وفى ألفاظ منتقاة فنراه يقول : إذا كانت القومية تتعارض مع القبلية فإنى حينئذ قومى . أما إذا كان هدف القومى فى المجتمع المتعدد الأجناس هو استبدال الديكتاتورية البيضاء بفاشية سوداء أى أن يستبدل مثلاً قبلية شعب البوير بوطنية متأججة الحماس للقتال لتحقيق هذا الصنف من الوطنية فإنى لا أوافق على ذلك .

الثورة والحركة الفكرية الوطنية الزنجية

إن ما وجهه كل من فانون ومغاليلى من نقد إلى كتاب الحركة الفكرية الوطنية الزنجية قد أظهر للعيان (بأن وضع النقط فوق الحروف) النضال الذى قام به المثقفون السود فى سبيل استقلال أفريقيا وتمييزهم بين ما يدعو إلى الثورة وبين تمجيد القيم الزنجية .

obeikandi.com

ويسجل فانون تفضيله للأدب الذى يدفع مباشرة إلى العمل لأنه يعتبر أن المشكلة المباشرة هى الميل إلى صف الشعب المكافح - أما رد الاعتبار إلى أفريقيا الموروثة عن الأسلاف فهو مشكلة خاصة بالنسبة للمثقفين المستعمرين ولا يمكن أن تكون إلا مظهراً ثانويًا وجزئيًا فى المعركة .

ويعتبر مغالبلى أن العودة إلى مصادر أفريقيا الموروثة عن الأجداد قد تكون عملية غير مثمرة لاعتبارات كثيرة ، فهى عملية قد تم تخطيطها فى أفريقيا الجنوبية التى أزيلت منها القبلية والتى قد تم فيها تكوين فن بروليتارى (المعدمين الكادحين) ممزوج بطريقة مبتكرة مع التأثيرات الثقافية المختلفة . وهى عملية سلبية لأنها تقطع الطريق على الفن الثقاف بفعل ما يأتى من الخارج وعملية غير ذات فاعلية لأنها انطوت على الذكرى بينما يتعين أولاً على الكتاب الأفريقيين أن يكشفوا عن الظروف والملابسات التى يعيش فيها المستعمر .

وقد يبدو أن هذه الانتقادات غير عادلة . فأولا أنه غير عمل طبيعى أن تفضل بين أدب الاحتجاج وبين تمجيد القيم الزنجية كما فعل الكاتب الأنتيلى وزميله الكاتب الجنوب أفريق والسبب فى ذلك أنه غالباً ما يكون نفسه متغنياً بالحركة الفكرية الوطنية وفى نفس الوقت يكون كاتباً ثوريًا . وأن موجهى فكرة رد الاعتبار للقيم الزنجية قد اعتنقوا هذه الفكرة على أنها أحد مظاهر الكفاح ضد الاستعمار .

ومن ناحية أخرى فإن خطر الانطواء على النفس لم يغب عن منقى الحركة الوطنية الفكرية الزنجية الذين أعلنوا ضرورة خلط الثقافات ، ومن ثم فإن اتفاق الرأى بين هذين الكاتبين الأنتيلى والجنوب أفريق يستحق منا أن نقف عنده . فليس اتفاق الرأى بينهما أمراً عرضيًا وتلقائياً بل إنه يطابق الضغط الناتج عن الظروف والأحداث التى تعرض لها كل من الكاتبين وهو ضغط متشابه جدًا لدرجة تلفت النظر . فقد كان كل منهما قد جعل من نفسه الناطق بلسان الشعب الجزائرى والشعب الجنوب أفريق حيث تأثير الثقافة الأوربية راسخاً بدرجة كبيرة لدرجة أن العودة إلى القيم الموروثة عن الأسلاف لا يكون له هناك نفس المعنى الذى يكون له فى أفريقيا بلا مستعمرين .

لكن ذلك يرجع بصفة خاصة إلى أن هذين الكاتبين حين كتبا مؤلفاتهما كانا يخضعان لسيطرة أوروبية عنيفة (الحرب فى الجزائر - التفرقة العنصرية فى اتحاد جنوب أفريقيا) بينما كانت بقية أفريقيا كلها قد تحررت أو كادت .

والنقطة الثالثة المشتركة بينهما هى حذرهما من البرجوازية - فبين مغالبلى أن الوظائف العليا كانت مخصصة للبيض فقط ، ويظل الموظف الأسود المثقف فى اتحاد جنوب أفريقيا ضمن الطبقة

الكادحة (البروليتاريا) بينما فى غانا وفى نيجيريا أصبح الحصول على المؤهل هو الطريق الذى يوصل بالتأكيد للوظائف ، كما أنه هو طريق الترقى إلى الوظائف البرجوازية وتتضمن جميع مؤلفات فانون احتقاره الذى ينساب بين سطورها للبرجوازية الوطنية والتى تعنى بالاستئثار بجميع المزايا على حساب جمهرة الفلاحين التى يعتبرها الكاتب طبقة الكادحين الحقيقيين .

وعلى ذلك فقد شعر كل من الكاتبين بالحاجة إلى تضامن فعلى خاصة فى الميدان الواقعى الذى يتحرق للكفاح اليومى فى الموقف المحزن الذى كانت فيه الشعوب التى ينتميان إليها . فبالنسبة لهما وفى الوقت التى كانت الدماء تسيل فى مدينة شاربفيل وفى الجزائر كانت العودة إلى مصادر الحكمة الزنجية أقل ضرورة من الكفاح والاحتجاج[1] .

• التام الذى يبدو أن حججه هذه تفترض فيما يتعلق بثقافتنا التقليدية والحيوية .

---

(١) نشرت مجلة الوجود الأفريق فى عددها رقم ٤٤ نقداً لكتاب « صورة أفريقية» للناقد أيبولا إيريل (على خزقيل فى نقط عديدة . ويرى كاتب المقال أن المؤلف يظهر عدم إحساس عجيب بإزاء طبيعة الاختيار الذى واجهه الزنوج المثقفون الناطقون باللغة الفرنسية إبان سنوات التشبه بالأوروبى ، هذا بينما أن كتابه يدخل بطريقة تدعو إلى السخرية إلى إطار الحركة العامة لإعادة تقدير أفريقيا وشعوبها وهو أساس الحركة الفكرية الوطنية ويضيف الناقد أن إلحاحه فى حيوية الثقافة الكادحة الجديدة ربما يكون حجة متينة ولكن ماذا نستطيع أن نكسب من وراء عدم الاكتراث .

obeikandl.com

الباب الثامن

ديدمونة الجديدة

ربما قرأتم فى هذه الأيام فى الصحف مغامرة الأرنب الأسود الذى تزوج فى ضوء القمر من أرنبة بيضاء فى كتاب أمريكى كتب للأطفال الصغار ، وقد نجحت يقظة البيض فى ولاية «ألاباما» فى اتهام هذه الأرانب ، لأن مغزى القصة هدام . . ومن أجل ذلك منعت أو صادرت هذا الكتاب من جميع المكتبات – فإن ما يصلح للأرانب يمكن أن يصلح للناس . . بهذا المعنى كتبت جميع الصحف العنصرية فى الولاية ، فإذا حدث أن تزوج زنجى بامرأة بيضاء فإلى أين يكون مصيرنا إذاً ؟ ومنذ بضعة أيام سابقة علمتم نقلا عن بعض الصحف الفرنسية أن الكاتب الزنجى «أبوتو» الذى ارتكب جريمة التنزه مع امرأة بيضاء قد طعن بخنجر فى الحى اللاتينى تحت سمع وبصر المارة الذين أظهروا عدم مبالاة للجريمة – وهكذا تكون حال العنصرية الهتلرية أو الأمريكية أو الفرنسية ، فإنها دائماً هوجاء وقاتلة[1] .

بتلك الألفاظ السابقة يصم السيد «ايتامبا» الأستاذ بجامعة السربون بباريس العنصرية ويندد بها فى خطاب ألقاه فى اليونسكو بباريس إبان الاحتفال بيوم الكفاح ضد العنصرية ومعاداة السامية والعمل فى سبيل السلام .

وفى الحقيقة فإن أكثر الأشياء التى تظهر العنصرية فى الناحية التطبيقية نجدها فى العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . وتعبر العنصرية عن ذلك بوسائل مختلفة وفقاً للظروف والملابسات ، وتبدأ من الاستنكار الاجتماعى البسيط لخلط الأجناس حتى تصل إلى النص القانونى الذى يستبعد حدوث ذلك الأمر .

وفى الأراضى الناطقة باللغة الفرنسية لم يصدر مطلقاً أى نص يحرم أى شىء بهذا الخصوص بل

(١) وردت بمجلة الوجود الأفريقى ص ١١٤ العدد ٢٦ وكتاب الأطفال المشار إليه هو زواج الأرانب للمؤلف حارث وليم .

على النقيض يوجد تشريع ضد العنصرية وبالأخص قانون ٢٩ الصادر فى يوليو سنة ١٨٨١ الذى يعاقب بالسجن من شهر إلى سنة وبالغرامة أى تشهير يأتى عن طريق الصحافة تجاه أشخاص ينتمون إلى عنصر أو دين معين حين يكون الهدف من هذا التفسير التشهير وإثارة الحقد بين المواطنين .

وفى الأراضى البرتغالية يعتبر خلط الأجناس جزءاً لا يتجزأ من المذهب الاستعمارى ، ويقول الشاعر الإنجليزى «ماريودى اندراده» إن ذلك الخلط هو أحد مظاهر القوانين الاستوائية .

ويذكرنا هذا الشاعر قائلاً : إن البعض ومنهم مثلاً العالم الاجتماعى البرازيلى «جيلبر توفرير» يؤكدون أن البلاد الاستوائية الواقعة تحت النفوذ البرتغالى وتحت الإدارة المسيحية (البرازيل – أفريقيا – الهند ماديرا – آزور) نرى فيها أن عملية هذه الوحدة فى المعاملة كان نتيجة منطقية كوسيلة من وسائل الاستعمار البرتغالى وللمودة والاستلطاف الذى يتسم به شعب البرتغال وهو أكثر المستعمرين الحديثين مسيحية فى معاملته مع الناس المنحدرين من عنصر منحط . والبرتغال بسبب احتكاكه بالعرب يبدو أنه قد اكتسب مقدرة وراثية تمكنه من الحياة تحت الشمس ، خط الاستواء ، كما اكتسب ميلاً طبيعيًا للمغامرات الجنسية مع النساء الملونات تحت رعاية فينوس (إلهة الجمال) السوداء . ولذا فإن «فرير» يسلم بوجود طابع معين ونوع من التكييف البيالوجى – الحيوى – والاجتماعى يتصف به البرتغالى إلى ناقل الحضارة إلى المناطق الاستوائية[1] .

وفى اتحاد جنوب أفريقيا فالزواج المختلط ممنوع كما أن العلاقات الجنسية بين شخصين مختلفين فى العنصر ممنوع أيضاً . ومع ذلك فغالباً ما تتسامح محاكم جنوب أفريقيا مع البحارة الأوروبين الوافدين مؤقتاً والذين يخالطون العاهرات السود . ولكن قراءة الصحف التى تصدر فى مدينتى «جوهانسبرج والكاب» تجعلنا نفكر فى أن هذه الأوضاع القانونية أصبحت أداة للتهديد بالفضيحة أو على الأقل طريقة مؤكدة للحط من قدر هؤلاء الذين يجعلون أنفسهم مذنبين فى نظر قانون جنوب أفريقيا .

وفى اتحاد روديسيا تا سيلاند الفيدرالى كان القانون يميز بين الجنسين . فكانت العلاقة بين الرجل الأبيض والمرأة السوداء تعتبر مباحة ، والعكس إذا كانت العلاقة بين المرأة البيضاء والرجل الأسود فهى ممنوعة ويعاقب عليها القانون .

(وبعد الحرب العالمية الثانية بعد سنوات كانت التطبيقات السياسية غير المألوفة لقصة حب عادية قد لفتت أنظار الرأى العام إلى المزاعم الباطلة التى تذيعها العنصرية فى أفريقيا الجنوبية فهى

(١) بالطبع أن الكاتب إندرادوا لا يشارك الكاتب «فرير» فى هذا الرأى أو فى جميع أفكاره .

قضية «سيرنس خاما» وريث أحد زعماء قبائل بتشوانا لاند (وهى واقعة تحت الحماية البريطانية تحيط بها أراضى جنوب أفريقيا) الذى منع من أن يخلف أباه لأنه قد تزوج من امرأة شابة إنجليزية).

أما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية فإن التشريع الذى يمنع العلاقات الجنسية بين الأجناس المتباينة يختلف من ولاية إلى أخرى.

وكان لزاماً علينا أن ننتظر من المظاهر المختلفة للعنصرية بخصوص العلاقات الجنسية أنها ستقدم المواضيع المتعددة للشعراء والكتاب والروائيين والمؤلفين الزنوج. وخاصة فى الولايات المتحدة حيث استغل «ريتشارد رايت» وشيستر هايمز هذه الظاهرة بالذات.

ولن يدهشنا أن نلحظ أن عقدة الرواية ومدارها فى جميع هذه الرواية متماثلة. فى جميع هذه الكتب أو أكثرها نجد اغتصاب الرجل الأسود للمرأة البيضاء وكيف أن الجمهور الثائر يقبض على الرجل الأسود أو يعدمه بواسطة (الكوكلوكس كلان) وهما الخاتمتان المنتظرتان الحتميتان لهذا الصنف، وينتج عن هذا غالباً صورة لشخصين مشتركين فى العملية: فالرجل الأسود تجتذبه المرأة البيضاء وتغريه حتى لا يستطيع مقاومتها وتكون العملية أكثر خطورة كلما كان الإغراء كبيراً. وتبقى ذكريات الإذلال التى يختص بها عنصره كرجل أسود ماثلة أمام عينيه وشجى فى حلقه، ولكنه يتغلب على هذا الشعور بمحوه من رأسه حين يغزو المرأة البيضاء وتبقى رغبته الثائرة مصحوبة بالظمأ إلى القتل. وتكون المرأة البيضاء مجرمة هى أيضاً ويسحرها الرجل الأسود هى الأخرى ولكن حين تشبع غريزتها منه تسرع إلى الصياح بأنه اغتصبها. وباختصار قلما توجد المواضيع الأدبية التى تمتزج فيها الجريمة والحب والدم والجنس بهذه الصورة السقيمة.

وتعتبر قصيدة الكاتبة الأمريكية الزنجية «جويندولين بروكس» بعنوان «شكوى بيرل مايلى» أقوى دليل على هذا المفهوم المتعلق بالشخصيتين أنها صيحة الثأر اليائسة الصادرة من العشيقة السوداء التى تهجر بسبب امرأة بيضاء ثم تتهم هذه المرأة البيضاء شريكها الأسود والذى قاسمها رغباتها. تتهمه أخيراً بأنه اغتصبها.

تقول الكاتبة:

إنك منذ طفولتك فى المدرسة وأنت تجرى وراء الفتيات اللائى يبهرن الأنظار
وكنت لا تحتمل الجسد الأسود ولا تنظر إلا للبشرات البيضاء
وكانت البشرات السوداء لا تصلح إلا الجوعى

ولكنك لا تنظر إلا لذوى البشرات الصافية البيضاء
وكانت البشرات السوداء لا تصلح إلا للجوعى
وكبرت وبقيت رأسك ممتلئة بالبشرات الصافية اللون
وكنت أنا لا أصلح إلا للمخدع وكثيراً ما لفظتنى
وكثيراً ما تمنيت موتك .
ثم جاءت امرأة بيضاء ذات يوم . وغمزت لك هذه الماكرة
فسقطت أعمدتك وتهادت رجلاك وتخلخلت
وأخذت تفكر حتى أعياك التفكير . لقد فكرت . فكرت كثيراً
حتى أضناك هذا التفكير
إنى أتخيلك وأنت فى إحدى الضواحى تحت ضوء القمر ترمقك عين البوم اليقظة
والليل الحلو الحالك يحيط برغبتكما . يطوق ويطوق رغبتكما
ستقولى لى : إنها كانت مع ذلك بيضاء مثل اللبن ، أليس كذلك ؟
وهل كان ثدياها ممتلئين كالكأس . وهل ارتشفت نصيبك من
هاتين الكأسين فى مؤخرة سيارتها البويك . لقد نهلت وشربت
ثم .. طردتك وأخرجتك من حلمك الجميل . وقالت فى هدوء
أيها الزنجى لقد اغتصبتنى . وصعد إلى وجهك الخجل فى هدوء
لقد اغتصبتنى أيها الزنجى أيها الشيطان . هل تعرف ما سأفعله الآن ؟
أيها الشيطان . ماذا تعتقد أنى سأفعله
إنى سأذهب إلى الرجال البيض فى المدينة ، وأحكى لهم جميعاً حتى يشفقوا علىّ
إنك أيها الزنجى قد حصلت على جسدى هذه الليلة وغداً . . .
سأحصل على جثتك . غداً . غداً سأحصل على جثتك .

إنها عبقرية ريتشارد المبتكرة تبدو فى ابتعاده عن هذه الصور المألوفة عند الجميع فنراه فى كتابه «فتى من البلاد» فتاه «بيجر» لم تغتصب مارى وقد قتلها من غير عمد (بالصدفة) ولكنه قتلها فى الحقيقة لأنه يعلم مقدماً قوة الاتهام الشائع فى أنه سيعتبر مغتصباً لها . ويحكى المؤلف القصة قائلاً .

إن بيجر توماس سائق أسود يعمل عند فتاة بيضاء تدعى مارى . ونجد مارى إما عن اقتناع وإما بدافع العنجهية (الحبلاء) وتحت تأثير خطيبها (جان) نجدها تسلى بتحدى المزاعم الباطلة التى

تتصل بالأجناس البشرية . فمارى وخطيبها يعاملان بيجر معاملة ودية للغاية .

فذات مساء يعاون بيجر مارى المخمورة لدرجة قصوى على الارتقاء إلى حجرتها ويعاونها لكى تنام . وفى اللحظة التى يستعد فيها بيجر لمغادرة الغرفة تدخل أم مارى وهى كفيفة البصر (عمياء) الحجرة فيفقد بيجر صوابه ويضع وسادة على فم مارى التى تئن لأنها مخمورة . فيقف بيجر وقد شله الخوف من أن تلحظ الأم وجوده فى الحجرة . ولكن الصمت يسود الغرفة فتقتنع الأم أن ابنتها لم تحضر بعد فتغادر الغرفة ولكن مارى تكون قد ماتت خلال فترة انتظاره ويعلم بيجر علم اليقين أن أحداً لن يصدق روايته للحادث وأنه لابد منته إلى الكرسى الكهربائى .

ويتجه موضوع العلاقات الجنسية اتجاهاً آخر إذا ما تركنا الولايات المتحدة الأمريكية وذهبنا إلى جزر الأنتيل وأمريكا اللاتينية . ففيما يتعلق بالعلاقات العنصرية فإن القاعدة الاجتماعية هناك نجدها مختلفة جداً . ففى الولايات المتحدة الأمريكية لا يزال الشخص حتى المختلط ذو اللون الفاتح (أو الأبيض) والذى يكاد أن يتخطى الحد الفاصل بين السود والبيض لا يزال يعتبر زنجياً . فمن الحدود التى بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية تمارس عملية تمييز فى اللون تختلف فى دقتها باختلاف سواد البشرة فهى تحل محل البطاقة الشخصية (إذ تظهر درجة الشخص الاجتماعية تبعاً للون بشرته) مما دعا «جورج بادمور» أن يرى أنه لزاماً علينا أن نجد تفسيراً لنظريات الكاتب «ماركوس جارفى» من جاميكا . النظريات الخاصة بنقاء العنصر الأسود وهى النظريات التى اختصها ودافع عنها هذا الكاتب فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى بقليل . وتفسير هذه النظريات تتلخص فى أن هذا الكاتب ماركو جارفيه أصله من جاميكا . فقد كتب جورج بامور عن هذا الرجل قائلاً .

لقد كان ماركوس جارفيه يعتقد فى أنه النبى موسى بالنسبة للجنس الأسود . وبما أن الشعب المختار لا يمكن أن يدنس فقد قرر طبعاً أن الزنوج هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحتلوا مركزاً فى منظمة «الرابطة العالمية للنهضة بالرجل الزنجى» التى أسسها ، وهو استنتاج منطق جداً لمفهومه لنظرية اتحاد الزنوج . وكان يحذر فى نفس الوقت كلا من البيض والسود من الخطر الذى يهدد فناء عنصريهما . فيقول :

إنه من الواجب على أصحاب الفضيلة ذوى الدماء النقية من العنصرين الأبيض والأسود أن يدافعوا ويحموا بجهدهم ونشاطهم وحكمتهم مستقبل الشعبين وذلك بمعارضة الدعاية الهدامة والجهود المخجلة التى ينادى بها مناصرو الخلط بين الأجناس من الجنسين الأبيض والزنوج المخلصين.

وأن تعصب جارفى العنصرى يدخل فى صراع مكشوف مع الشخصيات السياسية والدينية من الأمريكيين السود وعلى الأخص مع زعيمهم ورائدهم الدكتور و . ا . ب ديبوا» صاحب فكرة الوحدة الأفريقية والذى كان أحد زعماء الرابطة القومية لتقدم الشعب الملون . حتى أن جارفى قد تمادى فى ذلك لدرجة أن قبل مساعدة اثنين من ألد أعداء الزنوج وهما «أ . س . كوكس» من لكلوكلوكس كلان وكذا جون بادل من (نوادى الأنجلو ساكسن) هذان العدوان كثيراً ما خطبا فى الاجتماعات التى كان يعقدها جارفى ويوافقان على سياسته التى تهدف إلى العودة إلى أفريقيا مع الضغط على فكرة (النقاء العنصرى) .

كما يفسر بادمور حقد جارفى على المولدين الذى سببه أن هؤلاء المولدين كانوا فى جاميكا يشكلون طبقة متوسطة يؤول إليها جميع الأعمال التى لا يرضى عنها البيض . بينما كان السود يكونون غالبية الشعب المحتكرة الدنيئة المكونة من عمال المدن والفلاحين وإجراء مزارع السكر . ويسترسل بادمور فى إبراز فكرته قائلاً : فى بلاد يعتبر لفظ أبيض مرادفا للثروة والسلطة كان من الضرورى أن تكون درجة اختلاف الألوان لها أهمية عظمى وأن يكون الأكثر فقراً هم الأكثر سوادا . لذا كان المخلطون (المولدون) يجتهدون بل ويصرون على أبعاد من هم أدكن منهم لوناً والذين كانوا يحاولون الارتقاء إلى درجتهم الاجتماعية . وكان السود ينظرون إليهم كأنهم القائمون على حراسة استيازات وسلطات البيض . كما أن المولدين كانوا يقلدون البيض فى كل شىء وأما السود فهم المحتقرون ، هكذا كان الوضع والحال فى جاميكا أيام جارفى .

ويختتم باد مور كتابه بعنوان «مفهوم الوحدة الأفريقية» بهذه الملاحظة : إن موقف الولايات المتحدة كان مختلفا تمام الاختلاف عنه فى جاميكا . فى الولايات المتحدة فالغالبية البيضاء فى حاجة إلى خدمات المولدين لتبقى الطبقة الزنجية على حالها وفى مكانها . فجتمع الزنوج والمولدين فى مستوى واحد بالنسبة إلى البعض ، فهم زنوج بالنسبة إليه (إلى الرجل الأبيض) ولهذا فقد كان يكافح الزنجى الداكن والزنجى الفاتح معا فى سبيل ارتقاء عنصرهم والنهوض به .

وتميز الطبقات فى المجتمع لم يكن أقل ظهوراً فى الجزر الواقعة تحت نفوذ الأسبان أو الفرنسين وفى المستعمرات البرتغالية فى جاميكا . فلقد قام الكاتب الكوبى الأسود «فرناندو آرتز» بتحليل دقيق مرتب فى كتابه للكلمات والمفردات المستخدمة فى القرون الأولى للاستعمار فيقول : كان الإسبان يضعون المولدين فى مراتب ، فهناك مولدون بيض ومولدون لونهم كلون بشرة الذئاب ومولدون كمظهرهم مظهر الذئاب .

ومن جانب آخر فإن الكاتب «مورودى سانت مارى» قد حاول فى عام ١٧٩٧ أن يميز بين ألوان البشره التى هى نتيجة لعملية الخلط بين البيض والزنوج وسكان البحر الكاريبى وبين المتوحشين ومع الهنود الحمر الغربيين . هذه المحاولة ظهرت فى كتابه بعنوان «وصف طبوغرافى طبيعى ومدنى وسياسى وتاريخى للجزء الفرنسى من جزيرة سانت دومينجو» .

ويبين الكاتب الأمريكى الأسود «جيمس . و . ايفى» أن المصطلحات والمفردات التى كان يستعملها البرتغاليون فى البرازيل كانت هى الأخرى متباينة ومتنوعة تماماً قبل مفردات الإسبان ، ولكن البرازيليين كانوا يعتقدون أن الأفريقيين تصدر عنهم رائحة تسمى «كاتنجا» تشبه رائحة التبس ، وبين الكاتب «ماسيدودى سواريز» فى قاموسه البرازيلى للغة البرتغالية أن استعارة كلمة «التيس» أصلها كلمة برتغالية وتعنى الرائحة الكريهة التى تصدر على الجنس وهى تشبه رائحة الماعز .

أما فى جزر الأنتيل وفى أمريكا اللاتينية فإننا نجتاز عالماً يصبح فيه خلط الأجناس هو القاعدة كما تتعدد فيه حوادث الاغتصاب والقبض على الرجل وقتله ، هل هذا يكفى لأن يكون محور القصيدة أو الرواية الزنجية . وتبقى المزاعم الباطلة قائمة وتصبح المحرمات الاجتماعية هى سبب هذه المزاعم الباطلة . فيكتب جيمس . و . ايفى ويقول : إننا نجد الكثيرين من كتاب أمريكا اللاتينية من ذوى الدم الزنجى يشعرون بقلق دفين لأنهم ولدوا مولدين حتى ولو كانوا لا يعترفون بانتمائهم إلى الدم الأفريقى . هذه كانت حالة الكاتب البرازيلى «ماشادودى أسيس» ولو أن هذا لا يظهر بوضوح فى مؤلفاته إلا أنه ينظر للحياة بنظرة بلون خاص غير أنه يقدم مواضيع فى قصصه تتسم بالحزن والسقم فى قصة «أباليدا» مثلا أو المرأة الشاحبة والتى وردت فى كتابه التاريخى الذى نشره «ر . ماجالاس الصغير» تحت عنوان «قصص فى أزمنة خالدة» وتتلخص هذه القصة فى : —

أنه شاب تطرده من اختارها قلبه حتى إذا ما ورث عن (ربيبه) الذى كفله صغيراً مبلغ ثلاثمائة ألف دولار فلم يعد يراها ذات بشرة ناصعة كما كان ينظر إليها من قبل ، فبدأ يطردها من ذهنه ويحتقرها . وبعد الاستسلام والاستكانة إلى هذا الإحساس بدأ يبحث للحصول على امرأة أكثر شحوباً . والمرأة التى تحقق مثاليته مصابة بالسل فى أقصى درجة من درجات المرض وتموت خلال أسبوعين .

أما عن المؤلف نفسه ، وهو هذا الكاتب المولد ، فإنه كان يعلم تماماً حق قدره ومرتبته فى الهيئة الاجتماعية حتى أنه كان يكتب فى مذكراته (يوم ٢٤ يناير سنة ١٩٠٨) قائلاً فى مرارة «يالشقاء

وبالبؤس المرء غير الأبيض[1]) .

إن نفس المواضيع التى حواها الشعر والرواية والقضية الزنجية فى أمريكا الأنجلوسكسونية وفى أمريكا البرتغالية التى سنراها هى هى فى شعر الشعراء الناطقين باللغة الفرنسية بل سيكون لديهم نواح جديدة تعبر عن ظروفهم الخاصة بهم ، وعليه فلن نرى أثراً للقلق الذى كان يظهره كل من «جيمس . و . أيبى» و «ماشادودى أسيس» وخاصة هذا الأخير فى قصيدته القصيرة عن «ليون لا لو» من هايتى بعنوان (الطيف) حيث يقول :

إن السيدة القادمة من روتردام
فى طريقها إلى قضاء الموسم فى (كان)
إنها تفكر وهى تذرع الطريق . تفكر فى جزر الأنيل
وفى حقولها المنزرعة قصب السكر

وفى ابنة عمومتها «روث» المولودة فى المستعمرات التى لا تزال تتحدث عن هذه الرحلة . حيث أحست بحاجتها إلى معاشرة رجل مولد جنسيا
من جزيرة مارتينك

كما يوجه الكاتب الهايتى «جان . ف . بربر» حديثه إلى إخوته فى العنصر فيقول لهم فى قصيدته بعنوان «النفس السوداء» : -

لقد قابلتكم فى المصاعد فى باريس
وكنتم تقولون إنكم من السنغال أو جزر الأنتيل
وكانت البحار التى اجتزتموها تزيد رغوتها على أسنانكم
لقد تحدثنا معاً على ظهر الباخرة
فكنتم تعرفون بيوت الدعارة فى العالم أجمع
وتعرفون كيف تجامعون النساء بكافة اللغات
وكانت جميع العناصر البشرية قد أصابها الإغماء من قوة أحضانكم

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه المطالبة بالقوة الجنسية من جانب الذكر الأسود التى يصفه بها الكتاب أمثال «لالو ويربير» تعتبر أيضاً إحدى الصور (العلامات) للعنصرية الأوروبية التى

---

(١) ورد فى مقال فى مجلة الوجود الأفريق فى العددين ٢٤ ، ٢٥ ص ١٣٠ بعنوان «أن تكون زنجياً فى دول أمريكا» .

أوجدت فكرة الخوف من قوة الزنجي الجنسية على حد تعبير «فانون» إذ يقول هذا الكاتب الأنتيكي في كتابه الذي عنوانه «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» إن سبب هذه الظاهرة (ظاهرة الخوف) يرجع إلى أن الإنسان الأبيض المتمدين يحفظ في نفسه حنيناً غير معقول نحو الوطن أيام أن كانت الحرية الجنسية مباحة بشكل غير عادي وبمواقف تمارس فيها الشهوات بإفراط ويحدث أثناءها اغتصابات للمرأة لا عقاب عليها ، وكذا نوع من الفسق المحرم لمضاجعة الأهل وهو فسق لا يمكن فعه . لذلك نرى الأبيض ينقل كل هذا إلى الأسود ثم لا يلبث بعد أن يعكس كل ذلك عليه أن يسلك معه سلوكا كما لو كان الأسود كان يمارس هذه الأشياء من قبل (من قبل الاستعمار) - ومن ناحية أخرى فإن فانون يعتبر إغراء المرأة البيضاء وجاذبيتها للرجل الأسود تعبيراً عن رغبة الأسود في أن يجعل نفسه أيضاً بأي ثمن كان – فتراه يكتب ذلك في سخرية : تعتريني الرغبة فجأة أن أكون كذلك أيضاً فيتصاعد هذا الشعور من نفسي المظلمة السوداء وهذا الانفعال يعتريني خلال الجزء المظلل من روحي – إنني لا أود أن أكون أسوداً بل أريد أن أكون أبيضاً وإلا . . .وهذه معرفة لم يصفها هيجل ولكن من يستطيع وصفه ومعرفته سوى المرأة البيضاء وحدها ؟ فهي حين تحبني فإنها تقنعني بالبرهان على أني جدير بحب البيض . فهي تحبني كرجل أبيض . إنني رجل أبيضا إذاً .

فمنذ ثلاثين عاماً صاح رجل أسود جميل التقاطيع ويتمتع بجمال بشرة صافية ، صاح أثناء مضاجعته لامرأة شقراء ممتلئة حرارة وملتهبة الحواس ، صاح قائلاً : يحيا شلوخر : وشلوخر هذا هو الذي جعل الجمهورية الثانية في فرنسا تصدر قراراً بإلغاء الرق . ومن هنا نفهم أنه يجب أن نتعمق بعض الشيء في دراسة العلاقات الجنسية بين الرجل الأسود والمرأة البيضاء[1] .

أما الشاعر الحياتي (ليون . جـ . داماس) فلم يشأ أن يعرف سوى نساء جنسه فيقول في قصيدته (ردوا) .

أعيدوا إلى دمياتي السوداء حتى ألهو بها
وألعب بها ألعابي الفطرية الساذجة النابعة من غريزتي
أعيدوها إلى دمياتي السوداء
دمياتي السوداء . . . السوداء
ردوا إلى دمياتي السوداء
حتى يصرفن عني صور العاهرات صفراوات اللون بائعات الهوى

(١) من البديهي أن فانون لا يصدق أن هذه القصة حقيقة ولكنه يرى أن مجرد سردها له معناه .

واللاتى يذهبن ويجئن (يسرن رائحات غاديات) فى طريق ضجرى
ردوها إلى هذه الدميات السوداء حتى ألهو معها وأمارس ألعابى
الفطرية الساذجة
النابعة من غريزتى . أعيدوها على هذه الدميات السوداء
دمياتى السوداء . دمياتى السوداء . السوداء

وسنجد صدى لعمليات القبض على الزنوج واغتيالهم (فى جنوب الولايات المتحدة) عند شعراء الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية – هذا الصدى هو نتيجة لما بقى عالقاً بذاكرة الشعراء والكتاب من مساوئ الرق والعبودية .

فنجد عند شعراء الأنتيل وشعراء «جيانا» الناطقين باللغة الفرنسية مثل الشاعر داماس فى كتابه بعنوان Black Label نجد عبارة تتكرر كثيراً وفى نغمة لاذعة ، هذه العبارة هى : لقد شنق هذا الصباح زنجى مذنب لأنه أراد أن يتخطى الحاجز والخط الفاصل بين الأسود والأبيض . هذه العبارة يتردد صداها بين أبيات القصيدة كلها – كما نجد ذلك أيضاً عند الكتاب الأفريقيين .

فى عام ١٩٥٥ قبض الجمهور على شاب زنجى فى الخامسة عشرة من عمره اسمه «ايميت يتل» وشنقوه فى مدينة مونى بولاية ميسيسى لأنه تجرأ وأصدر من فمه صفيراً ليبدى إعجابه حينما مرت به شابة بيضاء . وقد برئ الشابان الأبيضان اللذان قتلاه – كان هذا هو موضوع قصيدة الشاعر السنغالى «دافيد ديوب» بعنوان : إلى صبى أسود

خمسة عشر عاما – وحياته متفتحة ويانعة وكلها آمال
فى الأقطار التى تلامس فيها البيوت السماء
والتى فيها القلوب جامدة – والتى يضع السكان فيها أيديهم على الكتاب المقدس
ولكن لا يتفهمون معانيه . . إذ لا يفتحونه
إن الحياة فى سن الخامسة عشرة تهدئ من نهم الأنهار
حياة ذوى الجلود التى لفحتها النيران الملقين بالزنوج الملعونين
وفى ذات مساء من أغسطس ارتكب الصبى الجريمة بأن تجرأ هذا
القبيح بأن استعمل عينيه وتراءى له فى الحلم فم وثدى امرأة بيضاء
هذا الجسد الأبيض أيها الصبى الأسود يحق له أن يفكر فى إشباع أجزائه الجنسية
فيهدم أحياناً الزنجى تحت أسوار مجهولة . لقد قبل لك مراراً إن الجريمة لا تجدى

فقام اثنان ليقيما العدالة - اثنان فقط لينفذا فيك الحكم
اثنان مقابل ربيعك الخامس عشر وآمالك فى الحياة . وفكروا فى الأعمى المجنون
الذى كان يرى
وفى النساء اللاتى يلطخن بالأوحال - وفى السلطان الذى يتهادى
فطارت رأسك وسط عاصفة الضحك المثالى وفى الساكن (القبلات) الخاصة ذات
الهواء المكيف وحول موائد الشراب الطازج حيث ينعم ضميرهم الطيب بالهواء .

وقد رأينا الشاعر الكنغولى «تشيكايا أوتامسى» يردد ذكرى هذا الفتى بعد سنوات فى إحدى قصائده فى ديوان شعره بعنوان «تاريخ مقتضب» :

أى أزهار (نجدها) نعدها
لذكرى ايميت تيل الصبى
الذى مازالت تدمى روحه نفسى

أما الاستعمار فى أفريقيا فإن شعراء الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية لا يعتبرونه تسلطاً سياسيًّا واستغلالاً اقتصاديًّا فحسب ، بل يعتبرونه إذلالا جنسيًّا ، فالمستعمر له الحق فى أن يضاجع الزنجيات .

وكان من نتائج هذا الامتياز القديم فى السيطرة أن كتب الكاتب الأنثيلى «بول نيجر» فى كتابه قوة الشراء «يقول : إذا حق للأبيض أن يحب أفريقيا فلأنه لا يجد فيها الغذاء والطاعة والدجاج بأربعة صلاوى فحسب ، بل لأنه يجد فيها النساء بالمئات .

أما «دافيد ديوب» فإنه يعتبر الإذلال الجنسى هو اللوحة الرئيسية التى تلخص على أوجهها فكرة الاستعمار فيقول :

لقد قتل الرجل الأبيض أبى
وكان أبى فخوراً
فقد اغتصب الرجل الأبيض أمى وكانت جميلة
لقد قصم ظهرى أخى تحت أشعة الشمس فى الطرقات
وكان أخى قويًّا
ثم التفت إلى الرجل الأبيض ومد إلى يدين ملطختين بدماء السود
وفى صوت السيد الآمر صاح بى : هيه أيها الخادم إلىّ بكرسى

ومنشفة وماء

أما الشاعر السنغالى فإنه حين يتغنى بجمال المرأة السوداء يعود إليه صفاؤه وهدؤوه فى قصيدته «راماكام» وهى أغنية من أجل زنجية .

تعجبنى منك النظرة الشاردة
وفمك الذى أشم فيه رائحة المانجو
«راماكاما»
إن جسدك فى سواد الفلفل
الذى يرقص الرغبة ويهيجها
«راماكاما»
فحين تخطرين تغار أجمل النساء
من وقع ساقيك الدفيئتين
«باراماكاما»
وحين ترقصين على نغمات الطبول «باراماكاما»
فكأن الطبول جيش منتصر
يلهث تحت وقع أنامل ساحر
وحين تحبين — حين تحبين باراماكاما
فكأن إعصاراً يتملكك ترتعد منه أجزاء جسمك
كبرق وسط الليل البهيم
فيتركنى وقد غمرنى عبيرك «باراماكاما»

كما تغنى أيضاً شعراء الأنتيل «بفينوس السمراء» فنجد الشاعر «جى تيرولبان» فى قصيدته «روح البلاد السوداء» ربما يكون قد تأثر بقصيدة «بودلير» بعنوان الجواهر ولكن عشيقة صاحب أزهار الشر (بودلير) لم تكن مؤلدة كما هى الحال عند «بتروليان» الذى يقول :

أن ثدييك المصنوعين من الحرير الأسود يتحفزان ويضيئان
وذراعيك المرنان الطويلتان بلحمها المموج . وهذه الابتسامة البيضاء
ابتسامة عينيك وسط وجهك الظليل

توقظ فى نفسى هذا المساء النغمات الخافقة والأيادى المصفقة والأغنيات الحالمة التى يتشى لها

هناك فى بلاد غينيا أخوتنا السوداوات والعاريات
يبعثن فى نفس هذا المساء ألواناً زنجية عميقة من الإحساس الجنسى
وقد تغنى سنغور هو أيضاً بالمرأة السوداء فقال : –
أيتها المرأة العارية (المتجردة) أيتها المرأة الغامضة
أيتها الثمرة الناضجة ذات الجسد البض . يا لفرط الهناء بسبب النبيذ الأسود .
أيها الفم الذى يجعل فمى يتبعنى
يا للسافانا التى تمتد آفاقها فى نقاء أيتها السافانا التى ترتعد حين
تلامسها نسمات ريح الشرق
أيتها الطبول المصقولة ، أيتها الطبول المشددة التى تئن تحت وقع أنامل المنتصر
فصوتك الهادئ الرزين وهو رجع أغنية الحبيبة أغنية المرأة المتجردة المرأة الغامضة
أيها الزيت الذى لا تموج سطحه ريح – أيها الزيت الهادئ الجوانب الذى يرقد
إلى جوار الرجل القوى (المصارع) إلى جوار أمراء مالى
أيتها الغزال التى عليها لمسات المساء والتى يضئ جسدها الأسود باللآلئ كالنجوم
يا متعة النفس التى ينعكس على بشرتك وهج الذهب الأحمر
وفى ظل شعرك الأسود الغزير تستضئ نفسى القلقة بسناء عينيك .

ولكنا نرى الشاعر نفسه (سنغور) يتغنى أيضاً بالمرأة البيضاء فى قصيدته « كاياماجان » فيقول :
إن مملكتى هى مملكة الحب وإن بى ضعفاً تجاهلك أيتها المرأة الأجنبية
ذات العيون الصافية والشفاه القرمزية كالتفاح المعطر بالقرفة وذات الشهوة كالوقود الملتهب
لأنى مصراعى باب يئز تحت نفخ الرتج فيه فيحدث صريراً عالياً
لأن جلبة الطبل قوة أفريقيا المستقبلة
فنامى تحت خصلات شعر قرى الغزيرة

« ولاماين دياخات » تغنى بالمرأة البيضاء كما فعل سنغور وهو من الشعراء فقد تغنى بفتاة الضباب الشمال الجميلة تماماً كما تغنى بآلهات سيخومار .

أما الشاعر « مارسيل شيدا » فأبى إلا أن يكون محدوداً فى سكره فى ناحية معينة مثل الشاعر داماس فيقول فى قصيدة له :
أيتها الأميرة السوداء

إنى أتغنى بك وأتغنى بمفاتنك
يا إلهة الجمال الطبيعى التى لا يدانيها أحد
أما أنت أيها التمثال الصغير الأبيض يا ذات الشفاه الحمراء
كلا - حقاً أن جمالك صناعى - صناعى للغاية

أما الشاعرة الغانية « ايفوا مورج » فإنها تثور ضد تقاليد بنى جنسها الباطلة التى تحول دون حبها لرجل أبيض فتقول :

التقاليد والعنصرية
وأساليبها السياسية الزرية
كونت مزيجاً بشعاً . ليفرق بيننا
ولكى ينتزع أحدنا من الآخر

المقدمة :

سنقابل حتماً هذه الظاهرة وهذا الموضوع فى القصة (الأنتيلية) وكذا القصة الأفريقية - فيقص الكاتب « رينيه ماران » فى كتابه « رجل كالآخرين » كيف أن رجلا أسود كاد أن يتخلى عن حبه لامرأة بيضاء (أوروبيه) .

أما فى كتاب « طريق الرعد » وهو قصة علاقة وثيقة قامت بين زنجى مولد اسمه « لانى شكارتر » وشابة من البوير تدعى « سارى فليبر » فإن كاتب هذه القصة السيد « بيتر ابرهامز » يريد أن يصور التفرقة العنصرية بأبعادها الحقيقية مستنداً على هذه المأساة الفردية ، فيشرح إحدى شخصيات هذه الرواية المأساة قائلا : إن المأساة ليست مأساة « شفارتر » وهذه الفتاة « سارى » ولكنها مأساة هذه البلاد (جنوب أفريقيا) والفترة التى تعيش فيها - فالمأساة هى أنه يجب أن تكون أولا وقبل كل شىء مواطناً من سكان هذه البلاد أو مولداً أو يهودياً أو عربياً أو صناعياً أو يونانياً وإلا فلن تعتبر مخلوقاً آدمياً - هذه هى المأساة وهى جريمة عصرنا الحاضر . ومن أجل هذا كان على شفارتز وهذه الفتاة أن يتحملا الآلام مع كونهما مخلوقان آدميان . وأصبح حبهما رمزاً على كفاح الإنسان وجهوده من أجل أن يكسر هذه الأغلال التى تقيده .[1]

ولكن الذى يلفت النظر فى القصة الأفريقية التى تعالج الموضوع الذى نعنى به إنما هو صورة

(١) ذكر هذا الدليل فى كتاب «صورة أفريقية» للكاتب خرقيل مغاليه ١٨٠ .

المرأة الأوروبية وهى صورة مخالفة تماماً عن صورتها فى القصة الزنجية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

فنرى عند الكاتب « جمامذ ولين بروكس » أو (سيستر هايز » أن الزوجة أو العشيقة السوداء تحل محل المرأة البيضاء متحدية جميع المزاعم العنصرية . فى القصة نجد أن « سولانج » التى أنقذت فى صباها صبياً اسمه « ماميك » الذى كان على وشك الغرق فى النهر الذى يحد أملاك أبيها فى الكونغو . ويحصل الصبى على دراسات لامعة وتواجه سولانج غضب أبيها حين ترغب الزواج من الزنجى .[1]

وإيزابيلا زوجة « عمر فاى » التى تصاحبه فى بلاد « كذا مانس » وتقاسمه أفراحه وآلامه وتتحمل الحرمان فى بيئة أفريقية يصعب الاندماج فيها وكذا وسط أوروبى يظهر لها العداء علانية . ثم يحاول رجلان من البيض اغتصابها لاعتقاد البيض دائماً أن زوجة الزنجى سهلة المنال[2] . (فإن هذا الاعتقاد قديم . فهو أول إهانة فكر فيها عطيل) كما نعرف أنه فى عام ١٧٨٧ نقلت السفينة لأول مرة بعض الزنوج إلى سيراليون وكان هؤلاء الزنوج قد أعتقوا لكى يقيموا فى هذه المنطقة كما نقلت معهم ستين عاهرة بيضاء التقطن من شوارع لندن وكان عدد الزنوج أربعمائة زنجى وهكذا تأسست مدينة « فريتون » .

و « لوتس » عشيقة « أودومو » التى التقطته فى لندن وساعدته بحبها ومالها وحين أصبح « ادومو » رئيساً للوزارة فى بلاد لم يشأ أن يحضر صديقه أيام شقائه إلى بلاده ولكن ندمه لتخليه عنها لازمه حتى إن آخر اسم تمتم به حين سقط صريعاً كان اسم « لوتس » .

وجاكلين التى تزوجت من « فارا » الطالب الزنجى برغم معارضة أبيها ولعنته . و « دينيز » الشيوعية التى أنقذت « كوكومبو » من البطالة ومن الجوع الذى يتهدده بسبب أن عمال المصنع لم يغفروا له فتوره تجاه الحزب الشيوعى . وها هى « لوسين » ابنة راعى الكنيسة وهى عضو فى الحزب الشيوعى أيضاً فقد أصبحت عشيقة لسامبا ديالو .

وهناك ظاهرة مشتركة بين جميع المنقذات وهى أنهن جميعاً مثل « ديدمونة » نهايتهن مؤلمة ، فسولانج تنتحر لأن والدها أراد أن يقتل ابنها وهو جنينه حين وضعته . كما تفقد ايزابيل زوجها الذى اغتالوه ، وتقيم لويس فى لندن وتتقدم بها السن بعد أن هجرها عشيقها . وتموت جاكلين

(١) قصة قلب الآرية تأليف جان مالونجا .

(٢) قصة . . يا بلادى وشعبى الجميل للكاتب «سامبين عثمان» .

وهى تضع وليدها . وتهلك دينيز إثر حادث مؤلم حدث لسيارة النقل التى كانت تنقلها لتشترك فى مظاهرة شيوعية – وتشذ واحدة فقط من بين هذه الأمثلة والصور من النساء المثاليات المنقذات – هذا الاستثناء جاء فى جنيت توينزا التى ارتكبت سرقة أدبية وذلك بأن نشرت باسمها مخطوط عشيقها الزنجى « ديافالا » الذى قتلها دون قصد خلال نقاش عاصف بينهما . وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . وقد كان موضوع القضية بالنسبة للكاتب فرصة ذهبية لكى يعالج موضوع قتل بيضاء بيد رجل أسود على الطريقة الأمريكية . فيستدعى أستاذاً من كلية الطب ليدلى بشهادته وفيها يعرض أفكاره عن السود وكيف أن فكرة الجنس طاغية عليهم فى رأيه .

وعلى عكس سامين عثمان « الذى أراد أن يسخر ويشوه جميع الأدلة التى اقتنع بها المحلفون فإن فريد ناند ايونولم يخشى أن يرسم صورة لشاب أسود تملكته الرغبة فى أن ينال امرأة فرنسية من البرجوازية الصغيرة وذلك فى كتابه الأخير وعنوانه « طريق أوربا » تملكته هذه الفكرة حتى ملأت عليه نفسه . ومسرح الرواية فى أفريقيا حيث إغراء مثل هذه المرأة أمر صعب بكثير مما لو كان فى أوربا . ومن ناحية أخرى فإن بطل القصة لم يكن مغرماً بالفتاة التى يريد أن ينالها وأن فكرة امتلاكها ما هى إلا نوع من الرهان المحض .

ولكن مدام جروشيه التى يهمها زوجها من أجل عاهرات سوداوات لاتهتم بالمدرس الشاب الذى يعطى ابنتها دروساً . وفى ذات مساء حين كانت فريسة للقلق نتيجة لمرض ابنتها بالحمى فقد كانت الصغيرة تهذى فإن هذه المرأة التى لم تكن جذابة لدرجة كبيرة وإنما كانت على درجة ترغب فيها . كانت هذه المرأة تبكى وهى تضع عارية مستندة على كتف « برناباس » المدرس الذى لم يعرف كيف يستغل الفرصة ، فقد ظل وكأنه قد تسمر فى مكانه .

إن قصة الكاتب أونونو هذه على درجة كبيرة من العنف والقسوة . فباستثناء واحد ، هو استثناء أم البطل فإن جميع الشخصيات فى القصة كريهة تدعو إلى السخرية أو بلهاء ، حتى اختيار اسم الشاب الأسود « برناباس » الذى لديه تلك الفكرة الثابتة فى ذهنه . وباختصار فالكتاب كله يترك عند القارئ الشعور بانحراف المزاج .

ولم يشأ الكتاب الروائيون الزنوج أن يعرضوا المشكلة من زاوية الصعوبات التى تقابل الزوجين الأسود والبيضاء . أما الفريقان الآخران الأبيض والسوداء فقد لفتا أنظارهم . وقد عالج كل من « سادجى وكان » باختيارهما بطلات من المولدات . فإن « نيتى » بطلة قصة الكاتب « سادجى » امرأة مولدة من داكار وهى تتنكر لعنصرها الأسود ، فهى عشيقة لأوروبى يرحل عن أفريقيا دون أن

يتزوجها - ومع ذلك فإن نيى واثقة من نفسها فقد رفضت فى غضب طلب عروض شاب زنجى متطور ليتزوجها . وعلى نقيض ذلك نجد أن «آديل» صديقة «سامبا ديالو» الأتينية فى باريس تحس شعوراً بأنها فى غير وطنها وتداخلها رغبة ملحة فى أن تعود لتندمج فى أفريقيا عند أسلافها . وفى قصتى مابوت كابيسيا بعنوان «إنى مارتينية» و«الزنجية البيضاء» تعبير عن نوعية انتماء المرء إلى عنصرين بشريين . وما يترتب على هذا الانتماء من مشاكل للرجل وللمرأة .

ولكننا نجد فى رواية «كامرا لاى» الثانية نوعاً من التنوع المبتكر فإن رواية «نظرة الملك» تروى قصة شاب أوروبى اسمه «كلارنس» يهبط أفريقيا كما يحدث فى الأساطير فيبحث عن عمل ولكن بدون جدوى ، لأنه لايعرف أى مهنة أو حرفة من المهن الأفريقية الموروثة . فهو يجد أن كل شىء فى أفريقيا غريب عليه وليس من السهل فهمه ، وحين يئس من النجاح ترك مستقبله فى يد شيخ عجوز متسول فاصطحبه معه فى طوافه الذى لاينتهى من قرية إلى أخرى حتى وصلا قرية كان مقرراً أن يمر بها الملك فوضع «كلارانس» آخر أمله فى هذا الملك عله يجد عملا ما فى بلاطه . فأقام فى هذه القرية مع امرأة شابة جميلة سوداء فى كوخها . فكانت تقدم له كل ليلة شراباً نصفه مخدر ونصفه الآخر مثير للشهوة الجنسية ، ولم يلحظ ذلك إلا بعد شهور طويلة من أن رفيقته هذه تتغير كل ليلة وأنها تختلف عن سابقتها . . . لم يكتشف هذا إلا مصادفة فى نزهة حين مر بنطاق بيوت زوجات رئيس القرية العجوز . فقد اختلف إلى كوخه جميع حريم هذا الرجل المسن غير القادر جنسيًّا وإذاً فقد وجد أخيراً العمل الوحيد الذى لا يتطلب دراية وهذا العمل فى إنتاج الذرية .

وفى هذه المرة يتحرر الكاتب الأسود من عقدة الإذلال الجنسى التى أرادت العنصرية أن تزرعها فى نفسه . فقد تحرر منها فى سخرية وذلك بصوغ قصة خيالية لا عن طريق المأساة الواقعية الحقيقية .

قبل الثورة

كتبت «ليليان كستلوف رسالتها بعنوان» الكتاب السود الناطقون بالفرنسية ومولد الأدب «كتبت فيها تاريخ الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية . فقد مشت خطوة فخطوة وراء ظهور مختلف المجلات التى دبجها المثقفون السود فى باريس وتتبعت كلا منها خاصة فى الفترة التى بين الحربين العظيمين كما حللت تأثير الكتاب الزنوج الأمريكيين الموجودين فى فرنسا على كتاب جزر الأنيل

والأفريقيين الناطقين بالفرنسية . كما أبرزت أثر الشيوعية والسريالية وجاذبيتها العميقة لهؤلاء الكتاب السود خاصة قبل انتشار وازدهار الحركة الفكرية الوطنية الزنجية بعد الحرب العالمية الثانية .

وكان لزاماً على هذه الكاتبة أن ترجع إلى المصادر الأولى وكذا أن تكشف عن الرواد الأول لما قبل الحرب العالمية الأولى - وكان من المفيد أيضاً أن تذهب إلى ما قبل ذلك التاريخ بمدة كبيرة جداً ولكن المؤلفات عن هذه المدة نادرة للغاية .

إذ نجد كتاباً تختلف وجهات نظرهم اختلافاً بيناً عن نظرة كتاب وشعراء وروائى الحركة الفكرية الوطنية الزنجية .

فرجال مثل « جيمس افريكانوس . ب . هورتون وليوبولد بانيه » يعتبرون أنفسهم كخدام أمناء للدولة المستعمرة (الاستعمارية) فيبذلون أقصى جهدهم فى تأدية أعمالهم بنشاط زائد . فكتاب « هورتون » الذى كان يعمل طبيباً فى الجيش البريطانى إبان حملته على ساحل الذهب بعنوان « الطقس الطبى والطبيعى وعلم الأجرام فى الساحل الغربى لأفريقيا » هذا الكتاب يحوى مجموعة من النصائح الطبية والصحية لكافة الأوروبيين الذين يمرون بهذا الساحل الذى يوصف دائماً بأنه « مقبرة الرجل الأبيض » .

وكان المؤلف دائماً حسن النية فى نوايا المستعمرين ولم يخامره أدنى شك فى ذلك ، فقد أهدى هذا الكتاب إلى « ادوارد كامل » وكيل وزارة المستعمرات وقال فى إهدائه له : إن هذا الكتاب بمثابة مكافأة لما قام به كامل فى سبيل ترقية العنصر الأفريقى » .

والإحساس بالتفانى فى خدمة فرنسا الذى قام بها « ليوبولد بانيه » وهو سنغالى كلفته الإدارة البحرية والمستعمرات ببعثة استطلاعية تلزمه بأن يعبر الصحراء الكبرى من مدينة سانت لويس حتى مدينة الجزائر ، هذا التفانى لم يكن هيناً . ولكى يقوم بهذه الرحلة كان يضطر ليتنكر فى زى مسلم . وقد اتفق مع أحد رجال قبيلة بول فى إقليم مازينا أن يشيع أنه لاجئ يريد أن يعتنق الإسلام على يد ولى من أولياء الله « سيديا » فى منقة ترارزا . ولكن مشروعه مُنى بالفشل . ونراه يعبر عن فشله هذا بلهجة صريحة برغم أسلوبه المنمق الذى يتمشى مع العصر . بهذا كان حماسه لحفل إسلامه (هذا الحفل الذى هو كذبة يستحق عليها العقاب) فهو يصفه وكأنه عيد يحتفل به مقدماً فيقول : كم كانت الصدمة قاسية . فى اللحظة التى كدت أصل فيها إلى مدينة « بوتلميت » كنت أخاطب نفسى قائلا غداً عندما يسدل الليل ستاره المظلم فيحجب ضوء الغسق الشاحب . سأذهب لأرتمى راكعاً تحت قدمى سيديا المعظم والذى بعد أن يحلق رأسى بسيفه المقوس ذى الحدين سيعلن إسلامى أمام

تلاميذه المجتمعين من حوله وبعد أن ينتهى هذا الإجراء سأعبر أفريقيا كلها دون أن يزعجنى أحد[1] ولم يمنعه فشله من السفر نهائيًا بل سافر ولم يصل إلى الجزائر وإنما انتهى به المطاف عند سويرا فى مقاطعة كوجارور .

أما السنغالى الآخر « الأب بولات » فقد كان مدافعاً عن الاستعمار ، فحينما أسس فى عام ١٨٤٣ أول مدرسة فرنسية فى السنغال شرح فى خطاب افتتاحه لهذه المدرسة وصف الأعمال التى ستفتتح ميادينها أمام الشباب الأسود - وقد وصف ذلك فى أسلوب جذاب للغاية وقد امتدح هذا الراهب بصفة خاصة الحياة العسكرية ومدرسة سان سير الحربية وكذا مدرسة الملاحة أو الميكانيكا التى سيتخرجون فيها بعد قليل لكى يقودوا السفن الحربية الخاصة بالمستعمرة واستمر الأب فى حديثه قائلا : أيها السادة إنكم تعرفون جيداً أن الضباط الفرنسيين لا يستطيعون تحمل الحر طويلا فى المراكز المقامة على النهر أو على ساحل البحر وإذاً سيخصص لكم هذا العمل النبيل يوماً ما يا أبناء خط الاستواء ، وسوف تؤدون هذه المهمة بطريقة مشرفة وسترى بلاد « سينجاميين » أى السنغال فى يوم من الأيام وسام صليب الشجعان يحلى صدوركم » .

على أنه يرى أن المواطنين من سكان البلاد يستحقون الترقية تبعاً لسلوكهم على أن يكون سلوكاً مثالياً وقد ندد فى أسلوب لاذع سوء سلوك مسيحى مدينة « جوال » الذين نصرهم البرتغاليون الذين أسسوا هذه المدينة فى القرن السادس عشر لأن هؤلاء السكان لم يكن لهم من المسيحية سوى بعض المظاهر (على حد تفكيره) إذ عادوا مرة أخرى إلى الخطيئة ولذا فهو يقول : لم يكن زواج الناس بأكثر من زوجة إلى جانب الفساد الأخلاقى الذريع هو العيب الوحيد الذى تتألم من أجله المسيحية فى مدينة جوال بل إن هؤلاء السكان الذين يدعون المسيحية هم أسوأ سكارى على وجه الأرض . وبالرغم من أنهم أكثر سكان أفريقيا سواداً فى لون بشرتهم إلا أنهم كانوا يدعون أنهم بيض وأن بياضهم ناصع ، وكان من أكبر الإهانات لهم أن يقال لهم إنهم سود أو أن يقال لهم إنهم من قوم « سيرير » فهم يحبون أن يسموا . سكان جوال البيض وأنهم مسيحيون لأنهم من نسل البرتغاليين مباشرة لأنهم عمدوا . وفى اختصار فإن المسيحى يجب أن يكون أيضاً حرًا وليس عبداً وأن يكون له الحق فى الشراب ووسائل تعاطيه . .

وبعد مضى خمسين عاماً أى سنة ١٩١٢ نرى سنغاليًا آخر لا يتحرز فى حديثه بل يرسل الكلام

---

(١) ورد فى مقال بعنوان قصة رحلة من السنغال إلى السويرا . ورد هذا المقال فى مجلة الاستعمار عدد نوفمبر سنة ١٨٥٠ ص ٣٧٩ - ٤٤٥ .

على عواهنه صريحاً يوجهه إلى الحاكم العام لأن هذا الحاكم كان يعتنق مزاعم باطلة عن بنى جنسه . إنه الكاتب « أحمدو دوجاى كليمرور أو أحمدو فبرجاى كلييدور نائب رئيس الاتحاد السنغالى فى نشر اللغة الفرنسية الذى كتب ذلك فى مقدمة رسالتيه الصغيرتين التاريخيتين وعنوانهما : معركة جويل ومن قيد هرب إلى كوبلانى . ويوضح المؤلف أنه كتب الكتاب فى سنة ١٩١٢ وفى عام ١٩١٣ حينما كان يتشرف بالانتماء إلى هذه الفئة الرائعة التى كان يصفها السيد أرنست روم بالحقارة وهى فئة المدرسين التابعين لقانون العاملين من سكان البلاد الأصليين . . . . فإن هذا الحاكم العام الذى اتضح أنه حاكم عظيم فى تشييد الموانى والسكك الحديدية لم تكن له دراية ولا سياسة تتعلق بسكان البلاد الأصليين ، ذلك لأن السيد مارسيال سكرتيره العام كان يرشده (الحاكم) بإرشادات سيئة لأنه لم يكن يحب الزنوج والذين بدورهم يبادلونه هذه الكراهية - أضعافاً مضاعفة ، ففى عام ١٩٠٤ طردنا خارج رابطة زملائنا فى العمل الذين ينتمون إلى الدولة الأم (فرنسا) .

إن هذه المقدمة لتعد مستنداً ثميناً . ذلك أن الكاتب يصور مشكلة تمييز فى الواقع أكبر بكثير من أنها مشكلة صغيرة تتعلق بالموظفين . كما أنها نقطة تحول فى سياسة فرنسا الاستعمارية إذ تخلت فرنسا عن القيام بالإدماج الصحيح (أى معاملة المستعمر بالمثل كالمستعمر) وبدأ تمييز بين موظفين من السكان المحليين وموظفين من الدولة المستعمرة ، فيذكر كليدور تأييداً لمطالبه التى تعنى معاملته معاملة الموظف الفرنسى يذكر : أعماله إبان الحرب وبطولاته وتضحياته الدامية وإخلاصه لفرنسا - تلك الأعمال التى قدمها آباؤنا أيام الثورة الفرنسية الكاسحة وأيام حكومة القنصلية وحكومة الإمبراطورية وما قام به الأبناء الذين خاضوا الملحمة السنغالية تحت قيادة فايدرب وبينة لايراد وبيردى ليل وكانارد[1]

وفى غداة الحرب العالمية الثانية أثار الأفريقيون تضحيات المحاربين القدماء منهم حتى يجعلوا مطالبهم مسموعة ، ولكن سرعان ماكفوا عن هذا الحديث والوصف الذى يتحدث عن حسنات المواطن الفرنسى ليطالبوا بالاستقلال .

---

(١) أن الكتابين السابق ذكرهما قد نشرا للمرة الأولى منفصلين ، أحدهما فى سنة ١٩١٣ والثانى سنة ١٩١٣ ثم أعيد نشرهما للمرة الثانية معاً فى سنة ١٩٣١ مع مقدمة من بيلزدياج ثم نشرا للمرة الثالثة تحت اسم آخر لمؤلف آخر هو أحمدو محمودبا وذلك حسب مؤلفات أفريقيا الغربية الفرنسية للسيد جوكلا ، وليس فى أيدينا سوى نسخة من طبعة سنة ١٩٣١ التى أصدرتها حكومة السنغال .

وعليه فإن المراحل القليلة النادرة والغالية الثمينة فى نفس الوقت التى شكلتها مؤلفات ليوبولد بابنه والأب بولاه وجيمس أفريكا نوس . ب . هورتون وأحمد وندباى كليدور هيأت لنوع من التطور . فبالنسبة للكتاب الثلاثة الأول والذين كتبوا قبل عام ١٩٠٠ فإن الاستعمار يعنى عملية ارتقاء بشرى ولذلك فهم يؤيدونه – أما بالنسبة للكاتب الرابع الذى كتب بعد نصف قرن فإن الأمر يتعلق بالدفاع عن الحقوق التى منحتها للأفريقيين سياسة المثل التى طالبت بها ثورتا سنة ١٧٩٨ ، وسنة ١٨٤٨ .

ومع ذلك فقد نشأ أدب الاحتجاج الزنجى فى القرن الماضى على لسان كتاب إلغاء الرق ، وفى هذه المرة ترى هل يعود أفريقيو القرن التاسع إلى أحضان الاستعمار فى حين أن كتاب الأفريقيين فى القرن الثامن عشر كانوا يفضحون الرق ، وهل يكون سبب هذه العودة أن الدول الكبرى التى بدأت فى تكوين إمبراطوريات لها فى أفريقيا فى هذه الآونة كانت هى الأخرى ضد تجارة الرقيق . ؟

نجد أن الأب مبيتى عند مشاركته فى مؤتمر روما يعلن فى وضوح ضرورة إلغاء الرق خاصة عند سكان أفريقيا الشرقية حيث كان الرق تمارسه فئة من التجار المسلمين ، وحيث حرر الإنجليز والألمان كافة العبيد . وقد تأسست مدينتا فريتون وليوفيل « على الساحل الغربى ، ولعل اسميهما يدلان على هذا التحرر وقد جعلتا لاستقبال هؤلاء العبيد المحررين .

وقد صاحب جو الثقة الذى ظهر عند فئة المثقفين الأفريقيين – الذين يعملون فى المستعمرات – إلغاء الرق كما صاحب أيضاً سياسة التطور الاجتماعى . وبذا فقد وصل الزنوج والمولدون إلى أرفع المناصب ، ولنعطى مثلين لذلك ، فالجنرال « دودز » الذى غزا داهومى لحساب فرنسا فى نهاية القرن الماضى كان من المولدين . وفى نفس الوقت كان أول أسقف أفريقى (للكنيسة الإنجليزية) فى النيجر هو الأسقف « اجابى كروتر » وكان عبداً حرره الغزو الاستعمارى .

وكان إلغاء الرق مثلا من عديد الأمثلة الملموسة لسياسة الدولة الكبرى الاستعمارية التى من شأنها أن جعلت نخبة المثقفين الأفريقيين يثقون فيما تصدره أوروبا من آراء ومبادئ إنسانية .

فالأدب الزنجى الذى عنى بالرق قد قدم من ناحيته طوال خمسين عاماً البراهين على تطور وتقدم ملموس . فإن « جاك ايليزا جان كابيش » شاب أفريقى بيع كعبد لملاح هولندى وهو فى سن الثانية عشرة . ودخل الجامعة فى سن العشرين (جامعة ليد) وبعد خمسة أعوام ، أى فى عام ١٧٤٢ كتب بحثاً سياسياً ودينياً عن الإبقاء على الرق لأنه لا يتعارض مع نشر الدعوة الدينية – كتب هذا البحث معتقداً أو متظاهراً بالاعتقاد بأن الرق يساعد على نشر الدعوة الدينية . وقد هاجم الأب

« جريجوار » فى سخط شديد هذا الرأى . حتى أن الكاتب « دى جرافت جونسون » قد ذكر أن خيانة هذا الشاب « كايس » كانت شؤماً ووبالا عليه إذ عين راعياً لكنيسة (المينا) فى ساحل الذهب وهى مركز من مراكز تجارة الرقيق الهولاندى . فكان موضع احتقار الأوروبيين بسبب لونه (لون بشرته) ولأنه كان عبداً رقيقاً من قبل ، كما لفظه مواطنوه فأصبحت حياته مريرة حتى أنه مات فى سن الثلاثين .

وبعد أقل من خمسين عاماً نجد مؤلفات كل من « ايتللو وكيجواتا وجوستافوفاسا واجناتيو سانشو ، كانت هذه المؤلفات صادرة عن وحى مخالف . فهؤلاء الكتاب السود وهم من العبيد المحررين – بل وكان الكثير منهم من مواليد أفريقيا – قد فضحوا النفاق المتفشى فى بيئة تدعى التمسك بالديانة المسيحية ، ويؤكدون وجود الرق . فقد نشر « ايتللو » مقالا فى عام ١٧٨٨ فى بليتمور بعنوان : بحث ضد الرق – يحدثنا عنه الأب جريجوار فيقول : إن هذا البحث (بحث ايتللو) يصف فى أحرف من نار مدى الألم والدموع التى يذرفها الأطفال المختفون والأصدقاء المبعدون عن ديارهم – هذه الديار العزيزة دائماً عليهم والتى يفسر مدى حبهم لها هذه المعتقدات البسيطة التى تخامرهم دائماً فى أنهم سيعودون إليها حتماً بعد وفاتهم .

كما نشر « أوتوباه كيجواتا » الذى ولد فى ساحل فانين والذى تزوج من إنجليزية عاش معها فى لندن . نشر كتاباً بعنوان « آراء عن تجارة الرق والرقيق الزنوج[1] . يدعو فيه أن تنزل السماء الصواعق على الرق والأرقاء معاً . ويقول أيضاً : فى أوروبا التى تزعم المدنية وتدعيها فإن الأوروبيين يضعون السلاسل والأغلال كما يشنقون اللصوص ويبعثون بالقبيلة إلى آلات التعذيب ، وإذا كان تجار الرقيق والمستعمرون لا تنطبق عليهم هذه العقوبات السالفة فذلك لأن الشعوب والحكومات تحميهم لأن القوانين تشجع تجارة الرقيق وتؤيد الرق وتبيحه . وقد توقع السماء عقوبات قومية على مرتكبى الجرائم القومية غير أنه عاجلا أو آجلا فإن الظلم يرد على مرتكبيه .

ونجد أن اللهجة التى يكتب بها « اينانوس ساتشو » فى عام ١٧٨٣ تجدها أكثر اتزاناً ولكنها حازمة أيضاً فهو يقول : وفقاً للتخطيط الإلهى « الناموس الإلهى » فإن التجارة يجب أن تعم الأرض جميعاً بأن تنتشر المنتجات فى أنحاء العالم ولا ينبغى فى منطقة بذاتها حالة يفرضها الإحساس بالحاجة المتبادل بين الأمم وصلات الإخاء والمحبة بينها وكذا سهولة انتشار التعاليم الصالحة فى الكتب الدينية كالإنجيل . ولكن . . . هؤلاء الأفريقيين البؤساء الذين وهبتهم واختصتهم السماء بأرض غنية

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية عام ١٧٨٨ .

بائعة الزرع ، هؤلاء هم أبأس من فى البشرية بسبب تجارة الرقيق الرهيبة ومن يقوم بها المسيحيون .

كما أن نداء « جوستافوس فاسا » الموجه إلى البرلمان الإنجليزى فى سنة ١٧٨٩ والذى يقدم فيه مؤلفه يدافع فيه عن قضية إلغاء الرق . وقد دبج هذا النداء فى أسلوب رزين مليء بالاحترام . فهو يهيب بالأخلاق المسيحية وبتقاليد إنجلترا التحررية .

ومن المقطوع به أن الشقة التى تفصل بين كتابه « كانديش » من ناحية وبين ماكتب بعدها بثلاثين أو أربعين عاماً من ناحية أخرى تدل دلالة واضحة على وجود أزمة فى الضمير الأوروبى . فقد كان « كانديش » منعزلا فى مدينة « ليد » حيث يستطيع تقدير موقفه ، فقد كان الأسود الوحيد فى مدرسة لاهوتية وكان بلا شك ضحية لأساتذته - فى حين أن المثقفين المتحررين من الإنجليز وكانت غالبيتهم ينتمون إلى طبقة النبلاء - كانوا على العكس يشجعون الأرقاء المحررين لكى يسهموا فى حركة إلغاء الرق . ومن بين من كتب فى كتاب « جوستافيوس فاسا » نذكر أبرويلز ودوق يورك ودوق كمبولاند ودوق بدفورد ودوق مارلبورو . كما كان دوق مونتاجويجى « اجنايثوس ساتشو » .

ومن المحتمل أن نلاحظ علامات لتطور الفكر عند الأفريقيين أثناء الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى حتى وقتنا الحاضر . فلم يغب عن ملاحظة « هنرى كوبا » عند دراسته للأدب الجزائرى : الأدوار الثلاثة للأدب المغربى « وهى » عصر الاستعمار والأدب الأجنبى » وأصحابه من الأوروبيين غالباً ثم « عصر الوثائق » التى تشهد بحالة الشقاء المقيم ، ولكنها لا تنادى بالكفاح بطريقة علنية وثالثاً الفترة التى يندمج فيها الكاتب فى الكفاح وتكون فيها الكتابات ثورية صرفة ،

ونستطيع عمل تقسيم مماثل لهذا التقسيم للأدب الأفريقى الزنجى فالذى لاشك فيه أن بعض المثقفين الزنوج قد قاسوا أيضاً من « عقدة الإقليمية » التى يكشف عنها « كريبا » فى هذا النوع من الأدب وهو أدب الوثائق والاستشهادات المغربى وسيكون من اليسير تتبع التطور عند بعض الكتاب الذين فى مستهل حياتهم الأدبية والعملية يبدون وكأنهم تلاميذ للمستعمرين ثم انضموا أخيراً إلى الفئة التى تكشف عن فضائح الاستعمار . ولكن الذى يثير الاهتمام هنا هو فكرة الرأى المخالف أو التظاهر بها على الأقل وهى أن الرعيل الأول الذى صاح منادياً بالثورة قد وقع تحت تأثير وتحذير رجال الدولة لهم إلا نفر قليل كان يختلف عنهم تماماً أمثال « ليوبولد سنغور وسيكوتورى » .

وهناك حادث له مغزاه من هذه الناحية وهو حادث المؤامرة التى اكتشفت فى غينيا عام ١٩٦١ وهى التى جعلت إدارة الحزب الديمقراطى تواجه مواجهة صريحة هيئات المدرسين . حتى أن

أخصائى الشئون الفنية فى المجلة الأسبوعية التونسية . ر . جـ جيتون حين نشر مقاله محللا هذه المؤامرة فى هذه المجلة « مجلة أفريقيا الفتية » ذكر أن سيكوتورى قد لام هذه الهيئة (هيئة المدرسين) وعاب عليها من عدة شهور سابقة على أنها كونت « حزب المثقفين » وبذلك فقد اتهموا فيما بعد وكان منهم المؤرخ « جبريل تامس نيان » مؤلف كتاب « امبراطور شعب موندانج المسمى سونديانا وكتاب التاريخ الذى اشترك معه فى كتابته المؤرخ الفرنسى الماركسى « سوريت كانال » .

والإنذار الذى وجهه سيكوتورى إلى المثقفين الذى ذكره « جيتون » لم يكن الإنذار الأول . فقد اهتم رئيس جمهورية غينيا مرات عديدة بمشكلة هذه الفئة المثقفة وما تثيره من مشكلات . ففى رسالة إلى المؤتمر الثانى للفنانين والكتاب الأفريقيين فإنه أصر على أن يبعد هؤلاء المثقفون عن أذهانهم المفاهيم الاستعمارية وأن يحتكوا بالشعب وأن يتصلوا به . . . وقال سيكوتورى : إن المثقفين أو الفنانين المفكرين والباحثين لا يمكن أن تكون لقاءاتهم ذات قيمة إلا إذا ساهموا حقًا فى حياة الشعب وأن يندمجوا بطريقة فعالة فى العقل والتفكير وفى آمال السكان .

ولم تكن ثقة « فانون » بأقل من سيكوتورى فى هذه الفئة المثقفة أى المثقفين البرجوازيين الوطنيين فى الدول المستعمرة . ودون أن يحط من قدر الدور الإيجابى والتقدمى الذى تقوم به هذه الفئة فى الكفاح من أجل الاستقلال إلا أنه مع ذلك يبين فى كتابه « الملعونون فى الأرض » قائلا : إن المثقف المستعمر قد نمى كل رغباته الهجومية التى يخفيها وراء التشبه بالمستعمر - فقد شحذ كل هجومه لخدمة مآربه الخاصة وفوائده الشخصية . . وهكذا نشأت فى سهولة طبقة العبيد المحررين . نشأت طبقة فردية (أى تسعى لمنفعة الفرد) وأن ما يطالب به المثقف هو مضاعفة عدد المحررين وإمكان تنظيم طبقة حقيقية من هؤلاء العبيد المحررين . . ويختتم « فانون » حديثه بقوله : إن الدواء الحقيقى لهذا المثقف الذى تعلم فى مدارس الدولة المستعمرة هو العودة مرة ثانية إلى أحضان الكتلة الشعبية والاحتكاك بها .

كما أن سنغور يحس خطر المثقفين لأنه يرى فيهم بذور طبقة اجتماعية .

ويكتب رئيس جمهورية السنغال قائلا فى كتابه « الطريق الأفريقى نحو الاشتراكية » : لا توجد طبقات تحارب بعضها الآخر فى مجتمعنا هذا المكون من الزنوج والبربر . ولكن توجد فئات اجتماعية تتصارع من أجل النفوذ . وأنها فى المستقبل القريب ستحارب كل واحدة منها الأخرى إذا لم تتحرر من ذلك وإذا نحن تركنا المثقفين وأصحاب المهن الحرة والموظفين والمستخدمين وحتى العمال يؤلفون طبقات تضطهد وتغرر بالفلاحين والرعاة والصناع . فيجب إذاً على الأحزاب وعلى الحكومات أن

تبقى يقظة حتى تمنع حدوث ذلك .

وكما رأينا أن تعريف سنغور وتورى للمثقفين قد تعدى بعض الشيء معنى الكلمة فى حد ذاتها بينما يظل الكاتب « فانون » أقرب إلى المعنى الأصلى لهذه الكلمة . فالكاتب الأنتيلى يوضح فكرته ويقول صراحة إنه يقصد المثقف المستعمر . ولكن هؤلاء الكتاب الثلاثة يقصدون طبقة بورجوازية تلك الطبقة التى ينتمى إليها بصفة عامة كتاب ومفكرو الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية . ويقولون لهم بوضوح إنه يجب عليهم ألا يتضامنوا مع هذه الطبقة البرجوازية حتى يظلوا فى طليعة الثورة .

obeikandl.com